دار قصص وحكايات
للنشر الإلكتروني ٢٠٢١

أعماق بلادي

أحمد عيسى

•• مجموعة قصصية ••

أعماق بلادي

قصص قصيرة

أحمد محمد عيسى

العنوان: أعماق بلادي

النوع الأدبي: قصص قصيرة

المؤلف: أحمد محمد عيسى عبدالرحمن

قوة السرد: كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2021

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

الإهداء..

إلى مِصْر الوطن.. إلى كل قُطْر وسلْطنة.. وكل إمارة ومملكة.. ليس كل قديم يبلى وليس كل جديد يبقى.. تخيروا لعقول الرعايا والشعوب فإن التاريخ لا يُحابي ولا يرتشي.

أحمد محمد عيسى

المقدمة

هذه مجموعة من القصص القصيرة تحمل عنوان: "أعماق بلادي.. قصص قصيرة"، اكتتبتُها مُحلِّقاً بجناحي الواقعية المريرة والأمل المرتقب، خططتُها من جنبات الشارع المصري، ورصدتها من أحيائه ومدنه وقُراه بعين الناقد المحب، وبثثتُها جمال الماضي ومرارة الحاضر، مستشرفاً صباح المستقبل وانبلاج نوره.

وإني لأرجو أن تُجمع هذه القصص فيحتويها سِفرٌ جامع، أو يشملها كتاب شامل؛ لتعم الفائدة، وتُحفظ المواد عن تحريف وتأويل، وسطو وابتسار، آملاً أن يفيد القارئ من هذه المجموعة القصصية، فلا تكون مجرد تسجيلٍ راصد، أو تدوينٍ لاقط، بل أرنو أن تكون لافتات على الطريق، كُتبت بأحرف من أدب الواقعية، وجمال التعبير والرمزية، لا تخلو من طرح حلٍّ وإنارة درب، بمنأى عن وعظ ومباشرة، وخطابية جوفاء.

لقد ضمَّن المؤلف هذه القصص كثيراً من السلوكيات الحميدة، والأخلاقيات الكريمة، كتبها في قالب قصصي في غالبه، راعى فيه اليسر والسهولة، والإثارة والتشويق، في غير تَجَنٍّ على اللغة، أو تجافٍ عن قواعدها وأصولها، في أسلوب أدبي يُصقل لغة المتلقي العربي ويرقى بها.

وقد هدف الكاتب، من وراء هذه القصص، إلى إبراز قيم وفضائل إنسانية وحضارية لا يختلف في أهميتها محلل ولا ناقد، فضلاً عن قارئ أو كاتب؛ لأن القيم الفاضلة، كلها معانٍ إنسانية يقرها كل دين، ويقدرها كل قانون، ويتوخاها ويرجوها كل مجتمع.

ولعل المؤلف قد يكون وُفِّق في أن تكون هذه القصص صالحة تربوياً لأن يُقرر منها مختارات تضيء قطاع التعليم في مراحله المختلفة، وأن يفيد منها المعلمون والتربويون وأولياء الأمور؛ لأنها قصص تدعم نظريات النقد والإصلاح الاجتماعي.

أخيراً.. يرجو الكاتب أن ينفع الله بما خطَّ ودوَّن، وبما ألَّف وصنَّف، وإن هذا الكتاب – في النهاية – لا يحمل توجهاً مذهبياً، ولا تعصباً فكرياً، بل هي قصص تعزف على قِيثارة إنسانية مُجتمعية، تُنذر وتُحذر من قبيح الأقوال والأفعال، وتبارك قِيم الحق والخير والجمال.

المؤلف

أحمد محمد عيسى

١- ضمير زوج

مضى عشرون عاماً على زواج "منصور" بـ "نادية"، أنجبا خلالها أربعة أولاد ما بين ذكور وإناث، أحس "منصور" خلال هذه الأعوام العشرين المنسلخة بأن حبه لزوجته يذوي عاماً بعد عام، فحين ارتبط بها كانت خالصة له وحده قلباً وقالباً، إقبالاً واهتماماً، مودة وحباً، تعرضاً وتحناناً.

كانا في أوج عمريهما بمرحلة الشباب، فهو لم يتجاوز بعدُ الثلاثين، و"نادية" كانت تصغره بنحو سبعة أعوام، قضيا معاً نحو عامين سعيدين هانئين يرتشفان كؤوساً ممتعة من المودة والحب والحنان.

بعد فترة الحمل والمولود الأول أدرك "منصور" أن فرحته بكل مولود جديد سيكون ثمنها انشغال زوجته عنه أكثر، وانطفاء جذوة الألق فيها، واهتمامها بالطفل الجديد مع رعايتها – كذلك – لمن قبله؛ ما سيمدد أذرع الوحشة وقسوة البين فيما بينهما.

أطرق "منصور" مفكراً في ماضٍ حالم كان مُخضراً، وحاضر صار مزيجاً من ألم ناجز وأمل يُحتضر، ومستقبل لائح تسوقه الأيام غالباً لن يكون كسابقه من أعوام..

ثم أخذت "منصور" إغفاءة، شاهد نفسه فيها زوجاً تُزف إليه عروسه الثانية، انتابته مشاعر حبه الأول لـ "نادية"، فرح بأنس العروس الجديدة، وأحس أنه سيعود لسابق عهده الجميل طفلاً مدللاً، وعشيقاً مقرباً، وزوجاً مطاعاً محبوباً مرغوباً في كنفه، غير مزهود في قربه ومناجاته وهمسه. وقبل بدء حفل العُرس، التقى "منصور" بالمأذون الذي فوجئ بأنه يشبهه كثيراً، فعندما نظر "منصور" إلى المأذون ظن أنه ينظر في صفحة ماء صافية، أو إلى مرآة مجلوة، ثم دار هذا الحوار:

منصور: سبحان الله.. أنت تشبهني كثيراً!

المأذون: هذا إن كانت الروح تشبه الجسد!

منصور: لا بأس.. عجِّل الآن بتوثيق العقد.

المأذون: على رسلك.. هناك شرط وقيد.

منصور: أي قيد هناك.. وأي شرط؟

المأذون: لوليِّ العروس شرط في العريس.

منصور: كل شروطه مجابة.. عجِّل بربك.

المأذون: هو شرط وحيد.. ألا تكون أنانياً.

منصور: أناني.. اطمئن.. ليس لديَّ إلا الشوق والحب والرغبة.

المأذون: هي الأنانية ذاتها.

منصور: كيف يا ذاك رجل؟!

المأذون: حب الجسد، وشوق البدن، ورغبة الجسم.. عَرَض لمرض حب الذات.

منصور: أبن.. أوضح.. كيف ذلك؟

المأذون: الجسد قد يتغير ويستحيل، والجسم قد يترهل بعد امتشاق وبضاضة، والبدن قد يذبل بعد اهتزاز ونضارة.

منصور: لا أزال قوياً فتياً، وما تحكيه لم يأتِ حينه.. ولم أدرك بعدُ أوانه.

المأذون: أنت واهم، ليس كل شابٍّ يموت بعد أن يهرم أو يشيخ، وليس كل نبتٍ أخضر بعد اهتزاز الأرض إلى اصفرار يعيش.. فهل نسيت الأمراض والخطوب.. والآفات والعطوب؟

منصور: فلسفة وهرطقة، وجدل عقيم.

المأذون: العقيم من يحب نفسه، ويؤجج شهوته، وينفلت من عقال واجبه ومسؤوليته.

لماذا تتزوج وأنت لديك زوجة مضحية.. قد رُزقتَ منها الولد؟

منصور: بهم عني قد تخلتْ.. ولم تعد تبهرني وتولَّتْ.

المأذون: تماماً كما شُغلت أمك بك سلفاً عن أبيك.. وما ودعك أبوك يوماً وما قلاك.

منصور: ما المطلوب مني.. والليلة عُرسي؟

المأذون: أن تُفيق من سكْرة الأنانية، وأن تتخفف من شهوة الجسد، وسطْوة الجسم؛ لتذوق لذة الروح وتتعرف جمال النفس.

منصور: تجديد الزواج مشروع بل هو مستحب.

المأذون: وتحقيق الوفاء واجب مفروض مستحق.

منصور: أحبُّ الزواج وسكرته.. وأتعشَّق الحبَّ ولذاته.

المأذون: بل تحب نفسك يا مسكين.. فلا ترى منها إلا الماء والطين.

منصور: ويلي منك.. من أنت.. أخبرني؟

المأذون: أنا أنت وأنت أنا.. أنا الضمير والروح.. وأنت اللحم والدم.

أفاق "منصور" على صوت هاتفه، فإذا برسالة عنوانها: "أنت بالنفس لا بالجسم إنسان!".

٢- هارب إلى السرايا

استطاع "لطفي" نزيل مستشفى الأمراض العقلية والنفسية منذ عشر سنوات، أن يُغافل حرس المشفى الوسنانين قُبيل الفجر، بعد نجاحه في تسلله من عنبره إلى حجرة الأطباء المرهقين النائمين، وارتدائه معطف "بالطو" أحد الأطباء الذي كان أنيقاً مكوياً ومعلقاً على شماعة وبجواره سماعة طبية وجهاز لقياس الضغط.

أطلق "لطفي" ساقيه للريح بعد أن ارتدى المعطف الأبيض وعلق في رقبته السماعة. لم تكن هناك وُجهة يتغياها "لطفي" من هروبه اللهم إلا الشوق المستبد إلى الحرية المطلقة، لا سيما وقد مل "لطفي" احتجازه بالمستشفى خاصة أن ذويه قد أقلعوا عن زيارته منذ سنين عدداً.

جال "لطفي" في ربوع القاهرة سيراً على الأقدام حتى تنفس الصبح، وأشرقت الشمس، واستبان النهار معاشاً، أحس "لطفي" بألم الجوع يسري في معدته ويمتد إلى أوصاله وأعصابه.

توجه "لطفي" إلى أقرب عربة فول، وقف مع الملتفين حول العربة الذين استغربوا أن تصل أطناب الغلاء إلى فئة الأطباء، إلا أنهم قالوا: لعل هذا الطبيب لا يزال من أصحاب الضمائر الحية، وكثيراً ما تتعانق الضمائر الحية مع شظف العيش، بل وربما مع الفقر المدقع، والإملاق المعدم!

بعد أن أكل "لطفي" تظاهر بأنه يمد يده في جيبه ليخرج نقود الحساب ريثما يفكر في حيلة للهروب، إلا أنه فوجئ بوجود نقود ورقية فيما يرتديه من معطف الطبيب.

أخرج "لطفي" ثلاثة جنيهات ليحاسب بهما صاحب عربة الفول، فإذا بصاحب العربة يضحك من "لطفي" ويقول له: لا بد أنك تعمل بمشفى العباسية، لقد أثر عليك نزلاؤك.. الحساب ٢١ جنيهاً يا دكتور!

دفع "لطفي" الحساب مضطراً، ثم توجه إلى مقهى ليتناول فيه فنجان قهوة أو كوب شاي، وبعد تناوله مشروبين صفق للنادل الذي مَثَل بين يديه فوراً، فأعطاه "لطفي" ثلاثة جنيهات قائلاً: الباقي من أجلك؛ فضحك النادل ملء شدقيه ساخراً ثم قال له: الحساب ١٥ جنيهاً يا بيه غير البقشيش.

دفع "لطفي" الحساب محسوراً، ثم ابتلعته شوارع القاهرة القديمة وأزقتها في أحشائها، فتناول إحدى الجرائد ثم لم يكن لديه جنيهات فكة (صرف)، فأعطى بائع الجرائد عشرة جنيهات، فأعاد له البائع خمسة جنيهات، أخذها "لطفي" مبهوتاً!

أثناء سير "لطفي" بالحارات والعطفات سمع محصل الكهرباء، ثم محصل المياه، ثم محصل الغاز ينادون تباعاً: الأستاذ فلان ٣٠٠ جنيه، والأستاذ فلان ٤٥٠ جنيهاً، والأستاذة فلانة ٥٧٠ جنيهاً.

دُهش "لطفي" الذي لم يسمع بمثل قيم هذه الفواتير من قبل إلا للمصانع، والشركات، والمؤسسات، خاصةً في مثل هذه الأماكن الفقيرة التي لا يوجد بها أجهزة مكيفات أو نحوها.

طالع "لطفي" أثناء سيره وتجواله أسعار الفواكه، والخضراوات، واللحوم، والحلويات، والأحذية، والملابس، ثم أحس للمرة الأولى في حياته بأنه قد جُن!

جلس "لطفي" في مكان مُشمس ليطالع الصحيفة التي بيده، فإذا بصورته منشورة تحت عنوان: "هارب من السرايا"، فكر "لطفي" ملياً فيما سيحيق به من عقاب إن هو عاد إلى

المستشفى، وما سيحل به من نكال وحفلات تأديب تتناوشه من بوابة السرايا إلى الحجز الانفرادي لأجل غير معلوم.

لكن "لطفي" قرر في النهاية أن يُغيِّر بطريقة عملية عنوان خبر الصحيفة من "هارب من السرايا" إلى "هارب إلى السرايا"!

٣- نور السلم

في بيت من بيوت مصر الشعبية، كان يعيش جاران في شقتين متقابلتين، على اليمين من السُّلَم يسكن "سعيد" الموظف المتقاعد بالمعاش، وعلى يسار السُّلَم كان يقطن "سيد" الموظف بمرفق المياه.

"سعيد" لأولاده:

سُلَّم بيتنا لا تصل إليه أشعة الشمس إلا وقت الظهيرة؛ فأرجو أن تتركوا مصباحه مضاءً دائماً في غير هذا الوقت، فهناك أطفال وصغار وكبار يصعدون وينزلون والإضاءة مهمة لعدم حدوث انزلاقات ونحوها.

"سيد" لأولاده:

من الإسراف أن تتركوا نور السُّلَم منيراً، أشعلوه فقط وقت النزول والصعود؛ فإن كان جارنا مضيئاً لمصباحه، فلا تنيروا مصباحنا إنكم إذن لمسرفون.

"سعيد" لأولاده:

حين آتيكم بحلوى أو فاكهة أو تطهون طعاماً كثيراً، تعاهدوا جارنا بالإهداء؛ فإن هذه الأشياء إذا كثرت مللناها، وكان مآلها للفساد وصناديق القُمامة.

"سيد" لأولاده:

أحذركم أن تبددوا شيئاً من طعام أو شراب، واحتفظوا بكل فائض في الثلاجة، أما كِسَرَات الخبز فاجمعوها لبيعها؛ فإن سألكم أي جارٍ لنا عن كِسَرَات خبز قديم لطيورهم، فقولوا: إنه لا فائض عندنا فإنما نشتري على قدر حاجتنا.

"سعيد" لأولاده:

الآن.. اجهزوا لنسافر مدة أسبوعين إلى قريتنا ومسقط رأسي، نريح أعصابنا، ونصل أرحامنا، ونود أقاربنا، ونزور موتانا، عسى أن تكون إجازة نصف عام سعيدة إن شاء الله.

"سيد" لأولاده:

قد سافر جارنا الحاج "سعيد" وترك مصباح السُّلَم مضاءً، فإياكم أن تشعلوا مصباحنا إلى أن يعود من سفره بالسلامة إن شاء الله.

وبعد مرور عشرة أيام من سفر الحاج "سعيد".. ينطفئ نور مصباحه لانتهاء عمره الافتراضي.

يخرج "سيد" إلى عمله مبكراً كالمعتاد، ثم يفاجأ بظلمة السُّلَم، فكر "سيد" أن يدخل إلى شقته ثانية لإشعال المصباح، ثم خشي أن يستمر المصباح مضاءً فترة بقائه في العمل.

أخيراً قرر "سيد" أن يجتزئ بضوء الموبايل في نزوله للعمل، وما هي إلا درجات ثلاث، وإذا بـ"سيد" ينزلق على درجات السُّلَم صارخاً: قدمي.. قدمي.. كُسر الهاتف.. أشعلوا نور السُّلَم!

٤- تذكرة قطار

شُغل الموظف "أحمد" بمكالمة هاتفية من زوجته، طلبت إليه فيها أن يُحضر معه ليموناً عند عودته من سَفرةِ عملٍ بمحافظة دمياط؛ ذلك أن الليمون قد تجاوز سعره بالقاهرة المائة جنيه للكيلوجرام الواحد، وقد ظنت زوجة "أحمد" أن الليمون قد يكون أرخص في إحدى قرى دمياط "الزعاترة".

اشترى أحمد كمية كبيرة من الليمون كادت تبقي حافظة نقوده فارغة، إلا من قليل من الجنيهات التي توصله إلى بيته بالقاهرة؛ لأنه وجد أن سعر الليمون زهاء الربع مما ذكرت زوجته، وقال في نفسه: ما يفيض عن حاجتي أُهديه لأسرتي، وأصدقائي، وبعض الجيران.

توجه "أحمد" إلى محطة القطار واشترى تذكرة عودة من دمياط إلى القاهرة، وعندما جاء القطار مسرعاً وانحشر فيه الركاب؛ سقطت من "أحمد" تذكرة القطار دون أن يدري.

وفي القطار سمع "أحمد" بعض الناس يتحدثون عن غرامة جديدة لمن فقد تذكرته، أو لمن لم يُدرك أن يشتري تذكرة قبل انطلاق القطار، فضلاً عن عقوبات ستحل بالمزوغين والمراوغين ممن يتسللون إلى القطار ومنه لواذاً.

عندها تحسس "أحمد" جيبه ليطمئن على تذكرة العودة، خاصةً أنه لم يعد معه كثير مالٍ لدفع ثمن تذكرة جديدة، فضلاً عن تطويقه بغرامة أو نحوها، ثم فجأة احمرَّ وجه "أحمد"، ثم اصفرَّ وجهه حين أيقن بضياع التذكرة!

وفي آخر عربة القطار لمح "أحمد" شرطة القطار تقبض على راكب ليس معه تذكرة، وآخر معه تذكرة قد أنهى القطار مسافتها ولم ينزل صاحبها وظل موجوداً بالقطار.

وفي الوقت الذي خشي فيه "أحمد" من افتضاح أمره بالقبض عليه، بعد تعنيفه وسبه وضربه، سمع بائعاً يمر من جانبه، يقول بصوت غليظ أجش خفف البائع من وطأته بتلحينه: أوسع يا بيه، سكة يا باشا!! سجائر ولُب وسوداني!

بعد ما شاهد "أحمد" عين اليقين ما حل من عقاب الشرطة بالمخالفيْن، حيث انهالت الشرطة وبعض أفراد الجيش عليهما يداً واحدة ضرباً ولكماً وصفعاً، مع ترحيلهما عند أقرب محطة إلى قسم الشرطة.

لم يجد "أحمد" بُداً من أن يعصب جبهته بمنديل قماش كان في جيبه، ويشمر عن ساعديه، ويعوج فمه قليلاً، ويلحق ببائع السجائر محاكياً نغماته، رافعاً عقيرته منادياً: الليمون الأخضر والأصفر، الثلاث بخمسة جنيهات!!

٥- حين يتواضع الخارقون

الله سبحانه وحده هو واهب القوى والقدر، يمنحها من يشاء ويمنعها، ويؤتيها من يشاء وينزعها؛ وهو على كل شيء قدير.

لاحظ الأب "أحمد" أن أحد أبنائه "موسى" يختلف عن إخوته جميعاً، ليس في البنية الجسمية، ولا في الطبيعة النفسية فحسب، بل في أمارات بيِّنات على قوة لافتة، وقدرة جسمية متجاوزة لنظرائه.

كانت تلوح هذه القوة من "موسى" حين يحمل شيئاً ثقيلاً، أو عند دفعه شيئاً ضخماً، أو عندما يمزح مع أقرانه من الأطفال فيضغط على يد أحدهم، أو يتحداهم في ألعاب تختبر القدرة على الاحتمال، أو تتطلب الصمود القوي أمام الخصم.

تحدث "أحمد" مع زوجته "أم موسى" بخصوص ملاحظاته على ابنه، فعرف من خلال حواره معها، أنها لا حظت هذه الظاهرة في أشياء عابرة لم تسترعِ انتباهها طويلاً، مثل إغلاقه لأشياء يعز عليها فتحها، أو فتحه لأشياء مغلقة إغلاقاً محكماً تعجز هي عن فتحها.

مرت هذه المواقف على "أم موسى" مروراً طبيعياً إلى أن راعها مجيء ولدها فرحاً يخبرها بأنه نجح في تحديه طفلاً بثني عملة معدنية من فئة الجنيه المصري مستخدماً يديه مجردةً من دون الاستعانة بأي آلة كمطرقة ونحوها!

هنا استشعر الوالدان أن ابنهما على خطر كبير، فهذه القوة الخارقة لا بد لها من إرشاد وتوجيه، وتحذير وتنبيه، واستعمال في وجوه الخير، والانزواء بها عن مراتع الشر، ومباوئ السوء.

فكر الأبوان ملياً في تنمية هذه القوة في مجال الرياضة، لكنهما خشيا مغبة الرياضات التي تقوم على الاشتباك، كما أنهما توجسا خيفة من اشتهار أمر ابنهما بالقوة الخارقة؛ ففضَّلا أن يتابعا "موسى" بالتوجيه اليومي، وإخفاء هذه القوة عن الآخرين ما استطاعا إلى ذلك سبيلاً.

تعاهد الأبوان ولدهما بالتربية الإيمانية ربما أكثر من باقي إخوته، حتى امتلأ قلب الفتى "موسى"، الذي ما لبث أن صار شاباً، بنور الإيمان وسكينة الإسلام، وبشاشة السماحة والحِلم والسلام.

وكان مما أودع الأبوان عقل "موسى" وفؤاده، أن عليه أن يتذكر دوماً قدرة الله وعظمته، وأنه – سبحانه – منحه هذه القوة اختباراً له، وعليه كيما ينجح في هذا الاختبار أن يستخدم قوته فقط في الدفاع عن الضعفاء والمظلومين.

وعلى "موسى" ألا يستغل قوته في حظ نفسه أبداً؛ فإن سابه أحد أو عاركه فليقل: "سامحك الله!" ثم ينصرف من مسرح الأحداث مباشرة.

سار "موسى" على المنهج الذي أرساه والداه، فكان حين يرى مظلوماً أو ضعيفاً مجاراً عليه، يتدخل من فوره ذاباً عنهما بالحسنى والمعروف، فإذا أصر الظالمون على التمادي في الطغيان بالسب والضرب، أو السلب والنهب..

هنا كان يرفع "موسى" الظالم بذراعيه المفتولتين ثم يدور به دورات كثيرة سريعة جداً، وحين يتأكد لموسى أن الظالم قد داخ تماماً واستكان كان يُنزله بلطف ليسلمه إلى الأرض لأنه لو تركه واقفاً لخر متخبطاً منكباً على وجهه ثم يتركه "موسى" ويختفي فوراً.

وذات مرة رأى "موسى" رجلاً ضعيفاً يسب آخرَ قوياً ولم يكن الأخير مخطئاً، وكان يبدو على المشتوم ملامح القوة، فسأله "موسى" لم لا تدافع عن نفسك وخصمك – كما يبدو – أقل منك قوة وأشد ضعفاً؟!

فقال له الرجل: لا يغرنك جسمي وما يلوح عليه من أمارات القوة، إني أخشى إن رددت عليه أن يؤدي ذلك إلى التشاجر بيننا بالأيدي، وإني أُعاني من "خلع الأكتاف" الذي يحدث معي عند أقل اشتباك؛ لذا لا يمكنني التشاجر مع أحدٍ أبداً، فإن سابني أحدهم أو عاركني لم يكن بمقدوري إلا أن أقول له: "سامحك الله!".

عندها أدرك "موسى" الفرق بين قول: "سامحك الله" عن قوة ومنعة، وعزة وغلبة، وبين قولها عن خوْر وجزَع، وعجْز وفَرَق، فانطلق لسانه بكلمات نضحت من قلبه المفعم بالإيمان كان من بينها قوله تعالى:

{رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} [النمل: ١٩].

٦- آثام الظنون

بوجه مثل نور الصبح منبلج، وقلب بسعة بحرٍ ممتد، أقبلت المعلمة "خديجة" على تلاميذها باسمة الثغر، حاضرة القلب والفكر، ليكون هذا الحوار..

المعلمة: أمرنا ديننا الحنيف بحسن الظن بالآخرين؛ ونهانا عن سوء الظن، كما دعانا إلى التماس الأعذار للغير، وعدم المسارعة في الحكم على سلوكياتهم، كما أرشدنا الإسلام إلى أهمية التثبت والتبين مع النصح والإرشاد بالحسنى والمعروف.

هيا: كم نحبك معلمتنا النبيلة! حديثك العذب ذكرني بقصة "الهاتف مغلق" التي حكاها لي أبي؛ مثالاً على أهمية حسن الظن مُحذراً من الحسرات والآثام التي قد يجرها سوء الظن.

يارا: وأنا تذكرت الآن قصة "بقرة وحمار" التي رواها لي أبي دلالةً على ضرورة حسن الظن، وحسرة وندم من يسيء ظنه بالحكم المتعجل على الناس.

حمزة: أما أنا فقد حضرتني الآن قصة "بالهناء والشفاء" التي روتها لي أمي أقصوصةً حكتها لترشدني إلى حسن الظن، ولتحذرني من عاقبة التعجل بسوء الظن في الآخرين.

المعلمة: نستمع الآن إلى القصة الأولى.

الهاتف مغلق

هيا: كان لأبي زميلان موظفان هما: "عاصم"، و"باسم"، وكانا من متوسطي الدخل، ثم تعرضت ابنة "عاصم" لحادث سير أدى لكسر إحدى قدميها، فسارع والدها بالذهاب بها إلى المستشفى.

وهناك طلبت إدارة المستشفى مبلغاً لم يكن بحوزة أبيها "عاصم"، فأسرع واتصل بصديقه "باسم" طالباً إليه أن يُسعفه بمبلغ من المال.. لم يتردد "باسم" فقال لعاصم: لا تقلق سأكون خلال ساعة عندك بالمستشفى إن شاء الله.

لم يكن لدى "باسم" (الموظف) فضل مال لا سيما وقد أوشك الشهر على الانتهاء، فذهب "باسم" إلى صديقٍ له ليقترض منه المبلغ كي يعطيه لصديقه "عاصم" فلم يجده، ثم التمس صديقاً آخر فاعتذر الأخير لعدم استطاعته.

فنظر "باسم" فلم يجد إلا هاتفه الجديد الذي اشتراه منذ شهر؛ إثر قبضه "جمعية" اشترك بها مع الزملاء فبادر "باسم" إلى بيع الهاتف لدى أقرب محل.

وحين تأخر "باسم" على صديقه "عاصم" اتصل "عاصم" فوجد هاتف "باسم" مغلقاً، فغضب وحزن ثم أرسل "عاصم" إلى "باسم" في سَوْرَة الغضب رسالة مفادها: "افتح هاتفك فلا حاجة لي لمساعدتك".

وبعد أن أرسل "باسم" رسالته بدقائق، وجد أمامه بالمشفى صديقه "باسم" يُهرع إليه مبتسماً، فاعتذر عن تأخره، ثم قال تفضل أخي "عاصم" هذا المبلغ الذي طلبت.

وحين لاحظ "عاصم" عدم وجود هاتف "باسم"، قال له: أين هاتفك؟ فقال "باسم": قريباً – إن شاء الله – سأشتري أفضل منه بعد أن نقبض معاً المكافأة السنوية!

المعلمة: والآن نستمع إلى القصة الثانية:

بقرة وحمار

يارا: كان هناك صديق لأبي يقود سيارته على طريق سريع، وكانت هناك سيارة على يساره يقودها شاب مع آخر بجواره، إلا أنهما كانا غير منتبهين للطريق، فكانا يتحدثان بانهماك مسترسلين في نوبات من الضحك والحركات.

وقد لمح صديق أبي بقرة شاردة يطاردها صاحبها تعدو من جهة شمال سيارة الشابين، في لحظةٍ كانا ينظران فيها إلى بعضهما ويضحكان.. فقال صديق أبي بصوت عالٍ مشيراً إلى سيارة الشابين ومنبهاً لهما: بقرة!!

فقال الشاب قائد السيارة: أنا بقرة!! بل أنت حمار وابن.. ، فإذا برديف الشاب في لحظة فارقة بين الحياة والموت، وقد رمق البقرة، ينجح في أن ينحرف بمقود السيارة متفادياً البقرة، وبعد نجاة الشابين حاصرتهما حسرات سوء الظن وآلامه!

المعلمة: بقي أن نستمع إلى القصة الثالثة والأخيرة:

بالهناء والشفاء

حمزة: استقلت أمي قطاراً لزيارة أمها (جدتي) المريضة بأسوان، ولما كان السفر بعيداً، فقد اشترت أمي كيساً من المقرمشات والتسالي تقطع به ملل ساعات السفر الطوال، إضافةً إلى قراءة أحد الكتب الممتعة.

كانت هناك امرأة رديفة لأمي تجلس بجوارها، تصادف أن اشترت – مثل أمي – كيس مقرمشات من النوع نفسه لتستعين به على لأواء السفر وطول المسافات والساعات والمحطات.

وضعت المرأة كيسها على منضدة بينها وبين أمي، ثم دسَّتْ حقيبة لها أسفل هذه المنضدة، وفجأة تحرك القطار حركات عنيفة، فإذا بكيس المقرمشات يسقط في حقيبة المرأة التي كانت وقتها في الحمام.

أخرجت أمي كيس مقرمشاتها ووضعته على المنضدة نفسها، وقالت في أدب للمرأة رديفتها بعد أن عادت، هل تسمحين أن نتشارك معاً في تناول هذه المقرمشات؟

باستياءٍ من المرأة أومأت أن نعم. ثم فتحت المرأة كيس المقرمشات، وتناولت منه قطعة، فتناولت أمي قطعة مثلها.

ولاحظت المرأة طَوال الطريق أن أمي لا تمد يدها في الكيس حتى تمد المرأة أولاً، واقتربت محطة الوصول فإذا بقطعة واحدة قد بقيت، وكان الدور في التناول لأمي فقسمت أمي القطعة وأخذت نصفها، وتركت نصفها الآخر على مَضَضٍ وحَنَقٍ وتأفف من رديفتها.

وعند اقتراب توقف القطار، إذا بالمرأة تكتشف وجود كيس المقرمشات خاصتها، فنظرت إلى أمي مندهشة خَجْلَى، فقالت لها أمي: بالهناء والشفاء!!

المعلمة: يقول الله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: ١٢].

التلاميذ (معاً): صدق الله العظيم.

٧- حوار مع طبيب

ذهب "أسعد"، الموظف الخمسيني بإحدى شركات القطاع الخاص الممتَّعة بخدمة التأمين الطبي للموظفين، وقد دهمه مغص كُلوي قبل ثلاثة أيام، ليراجع عيادة المسالك البولية بمستشفى النزهة الدولي؛ بناء على توجيه طبيب الطوارئ الذي أسعف "أسعد" أثناء وصوله للمشفى.

كان موعد طبيب المسالك في تمام الحادية عشرة صباحاً، وقد راجع "أسعد" هذا الطبيب لأربع مرات، إلا أن الطبيب الخمسيني (ع.ش) الذي يعمل أستاذاً في جامعة عين شمس، لم يلتزم مرة بموعده الذي حدده مع إدارة المستشفى.

فدائماً كان يأتي متأخراً لأكثر من نصف ساعة، بل تجاوز تأخيره الساعة في مرتين من الأربع مِرار، وسط تسخُّط وضيق من المرضى والمراجعين.

كان المرضى ينتظرون أمام باب عيادة المسالك، وبعد طول انتظار أقبل عليهم طبيب المسالك ممسكاً نظارته السوداء بيدٍ وحقيبة أنيقة من جلد طبيعي بيده الأخرى، في حين كانت تطل على المنتظرين من جيب قميصه علبة سجائر من النوع الأجنبي.

مضي الطبيب يسير الْهُوَيْنَى في وقار وهدوء من تجاوز الخمسين من عمره، وما إن لامس مقعده باتئاد حتى ضغط زراً لإشعار الممرضة بوصوله، إيذاناً بدخول المرضى تباعاً وَفْقَ أسبقية الحجز.

جاء دور "أسعد" لينعم بملاقاة الطبيب، فكان هذا الحوار:

أسعد: صباح الخير يا دكتور.

الطبيب: أهلاً، خير.. تكلم باختصار.

أسعد: تعرضت لمغص كُلوي، وهذه أشعة السونار الخاصة بمنطقة الحوض، والكُلى، والبروستاتا.

الطبيب: وهو يكتب في ورقة طالباً تحليل بول، وأشعة مقطعية.

أسعد: بعد أن أُجري هذا التحليل والأشعة.. متى أعاودكم؟

الطبيب: الأحد من الساعة الـ ١١ صباحاً، أو الاثنين من الثالثة عصراً فقط.

أسعد: أشعة الرنين التي طلبتها.. هل لها استعدادات خاصة؟

الطبيب: سل فني الأشعة.

أسعد: شكراً لكم.

الطبيب: بالسلامة.

وبعد يومين..

أسعد: هذه هي الأشعة والتحليل والتقرير.

الطبيب: (ناظراً في الأشعة قارئاً التقرير ونتيجة التحليل): أسبوع علاج ثم تعاودني.

أسعد: هل من الممكن أن تريني مكان الحَصْوَة؟

الطبيب (بقسوة من يعشق الرفض): لا.. أنا لا أكاد أراها.

أسعد: هل أُجري شيئاً من فحص أو تحليل بعد أسبوع العلاج.. قبل أن آتي إليك؟

الطبيب: كرر الأشعة وهاتها معك.

أسعد: الأشعة المقطعية؟

الطبيب (ساخراً): بعد إذنك!

وبعد أسبوع..

أسعد: إليكم الأشعة الجديدة.

الطبيب: هل عاودك المغص مجدداً؟

أسعد: هناك مغص يأتي لثوانٍ ثم ينصرف ليعود بشكل متقطع إلا أنه مستمر.

الطبيب (منفعلاً): لستُ عن هذا أسأل!

هل عاودك مغص كُلوي شديد احتجت معه لأخذ مُسكِّن؟

أسعد: لا.

الطبيب: أسبوع علاج جديد، ثم تأتيني.

أسعد: هل هناك فرق بين حجم الحَصْوَة في الأشعتين؟

الطبيب: لا أجد فارقاً.

أسعد: لكن مقاسها المكتوب في الأشعتين مختلف كانت ٥×٨ ملم ثم صارت ٦×٧ ملم؟

الطبيب (متبرماً): قلت لك: لا أرى فرقاً بينهما.

أسعد: فماذا إن لم يُجدِ الدواء في تفتيت الحَصْوَة؟

الطبيب: عملية منظار.

أسعد: كنتُ أود توضيح أنني أجريت جراحة حَصْوَة بالمثانة حين كان عمري ثلاث سنوات تقريباً، ثم إنني قبل أربع سنوات كانت لدي حصوتان واحدة قطرها ٩ ملم والأخرى كانت ٣ ملم.

الطبيب: ثم ماذا؟

أسعد: يبدو أن جسمي متحفز لتكوين الحصوات، ثم إن بعض الأطباء أخبرني بأن منطقة الحالب والحوض لديَّ جِدُّ ضيقة.. فهل المناسب لي عملية منظار أو تفتيت؟

الطبيب: هذا تقرير مني بعملية منظار، فإن لم نستطع الدخول بالمنظار، كانت عملية التفتيت وتركيب دعامة للحالب الأيسر.

أسعد: تقصد الحالب الأيمن؟

الطبيب (ساخراً): لا.. أنا أدري ماذا أقول.. الحَصْوَة كانت على الكُلى اليسرى ثم تحركت إلى الحالب الأيسر.

أسعد: أذكر أنك في المرة الماضية قلت لي العكس، كما أنه مُثبت بوضوح في التقرير.

الطبيب (ناظراً في التقرير غير عابئ بخطئه): آه.. الحَصْوَة كانت بالكلى اليمنى ومنها انزلقت إلى الحالب الأيمن.

أسعد: متى أعاودكم؟

الطبيب: بعد إجازة عيد الأضحى تأتي ومعك الموافقة الطبية من الشركة على إجراء العملية.

أسعد: كم كُلفة العملية؟

الطبيب (مستاءً): راجع قسم الحسابات.

أسعد: هناك سؤال أخير.

الطبيب: قُل بسرعة.

أسعد: بعد تناولي للدواء الذي قررتم، انتابتني رعدة ودوار، واعتراني تَعَرُّق شديد ليلاً، كما أن المنيَّ غَيَّرَ مساره الطبيعي للإفضاء!

الطبيب: ذلك بسبب الكبسولة.. وعند إقلاعك عن تناولها ستختفي هذه الأعراض.

أسعد: لكنك لم تخبرني بحدوث هذه الأعراض قبل تناولي الدواء؟

الطبيب (مغتاظاً): ليس لديَّ وقت لهذه الدردشات.

أسعد (في الحسابات): من فضلك كم تكلفة هذه العملية؟

الموظف: ١٥ ألف جنيه.

انصرف "أسعد" وقد أحس بأن الطبيب يعامله معاملة الغني المتعالي للفقير المُعْوِز، معاملة مرضى الشركات لا مرضى العيادات.

وبعد استخارة واستشارة، وعميق تفكير ورويَّة؛ قرر "أسعد" ألا يُجري العملية، فقد ضاق ذرعاً بمعاملة الطبيب غير الإنسانية فاقداً الثقة بأمانته وإمكاناته.

ووجد "أسعد" أن الصبر على ألم المرض الخنَّاس أهون من خطأ جرَّاح لا يحترم إلا الغنيَّ من الناس.

ثم سأل "أسعد" نفسه: هذا الطبيب الذي ساء أسلوبه، واضطرب تشخيصه وتركيزه، ولم يُفلح دواؤه.. هل من الممكن أن ينجح مبضعه ومنظاره؟!

وبينما أخذت "أسعد" سِنَة من النوم سمع هاتفاً يقول: "أسعد، إلى أن تلقى الطبيب الحاذق الإنسان.. دواؤك في شرب ماءٍ وأعشاب، ودعاء وقُرب.. حذارِ من طبيب حاضر الأنا غائب الضمير والقلب!".

٨- حمامة المسجد

" ممدوح" خمسيني متوسط الطول، أصلع الرأس؛ أبيض البَشَرَة، مائل إلى الامتلاء، موظف بمرور إحدى المناطق بالقاهرة، ومن مستوري الحالة المادية.

لو شاء هذا الرجل لاغترف من الحرام فثبَّط العملاء وعطَّل، وأرجأ المصالح وسوَّف، ولفتح الأدراج، وغمز بالطَّرْف، ولمَّح بالجُمل الرخيصة، والإيماءات المرتشية؛ وحينئذٍ لَعَبَّ من المال عباً.

"ممدوح" إنسان سويٌّ منطلق على فطرته، منساب على سجيته، ليس شَغُوفاً بقراءة، ولا مُولعاً باطلاع، إنما هو كَلِفٌ بمجالس تعليم وترتيل القرآن الكريم والعبادات الخفيَّة، فتراه يُكثر الخطى إلى المساجد، يتسمع الأذان، ويتشوف للإقامة، ويتعرض كثيراً لنفحات الصيام.

يرى "ممدوح" نفسه مقصراً دوماً، فرغم أن صلاة الغداة لا تفوته فضلاً عن سائر المكتوبات، إلا أنه عقب كل صلاةِ فجرٍ يتذكر دائماً صلوات الصبح التي غفل عنها، وفرَّط فيها حين كان طفلاً، ويافعاً، ومراهقاً، وشاباً.

اعتزم "ممدوح" أن يعوِّض الصَّلوات التي فاتته لتقصير منه وتفريط، أو حتى التي لم يدركها لمرضٍ أو تعبٍ أو نوم، فكان يجوب رحاب الجوامع والمساجد بالمنطقة التي يسكن فيها، فيتعرف المساجد التي تُبكِّر بإقامة الصلاة، ويرصد المساجد التي تُرجئ الإقامة قليلاً.

فكان "ممدوح" دائماً من المبادرين إلى المساجد المبكرة بإقام الصلاة، ثم سرعان ما ينعطف – جاداً خاشعاً لا مُسرعاً – إلى المساجد المتأنية في إقامة الشعائر.. هكذا كان دأبه في صلواته خاصة في صلوات: الفجر، والعصر، والعشاء.

لاحظ رواد المساجد المبكرة أن "ممدوح" لا يختم الصلاة، ويهبُّ مسرعاً إثر التسليمتين، كما لاحظ رواد المساجد المتأنية أن "ممدوح" لا يأتي لصلاة السُّنن القَبلية.

هكذا انشغل الناس بـ "ممدوح"، في حين انشغل هو بمحاولة جمع الفريضة الواحدة في بيتين من بيوت الله.

وفي لقاءٍ عابرٍ بعد صلاة العشاء جمع "ممدوح" – قدراً – بمصليَيْن من كلا المسجديْن أمام محل "زاهر للألبان" بمنطقة عين شمس، دار هذا الحديث:

العصار: "ممدوح"، يؤسفني أن أراك دوماً حين تصلي معنا عَجِلاً بعد الصلاة.. فلا أذكار، ولا دعاء وخشوع ورويَّة، ولا أنت تصيب شيئاً من سُنن بَعدية!

السباك: وقد أحزنني كذلك أنك يا "ممدوح" حين تصلي معنا تأتي دوماً متأخراً، فلا تُدرك تحيَّة المسجد، ولا سُنة الوضوء، ولا السُّنن القَبلية.

ممدوح: معكما الحق تماماً.. تعلمان إرهاق العمل، وهموم البيت، ومشكلات الأولاد، وتلبيس الشيطان ووسوسته، وضعف النفس وكسلها، وضغوط العمل وأحكامه.. أسألكما بالله إلا دعوتما لي.

بعد هذا اللقاء، شرع "ممدوح" في البحث الحثيث عن مسجديْنِ آخريْنِ، يُدرك فيهما الفريضة المكتوبة مرتيْنِ من دون رصدٍ من أحدٍ أو متابعة.

وحين كان يقابله "العصار" أو "السباك"، أو غيرهما، ويسألانه عن غيبته يتعلل "ممدوح" بمواعيد الصيف، ومواقيت الشتاء، ووطأة العمل.. مؤكداً لهما أنه في حاجة ماسَّة إلى دعوة المحبين من إخوانه بظهر الغيب!

قضى "ممدوح" زُهاءَ رُبع قرنٍ متنقلاً بين المساجد حتى جاوز الستين من عمره، وكان يُغيِّر المسجد حين يلحظ من أحدهم ملاحقة أو فضولاً.

وفي جنازةٍ متواضعة الاحتشاد والإعداد، إلا أنها كانت مهيبة الجانب، ظللها الخشوع، وجللتها السكينة، اختصم الناسُ بعد الفراغ من الدفن فريقين، أحدهما يقول:

لقد تُوفي "ممدوح" – رحمه الله – عقب صلاة الفجر معنا بـ"مسجد التُّقى" بحوالي ساعتين.

على حين كان الفريق الآخر يؤكد: بل قضى – غفر الله له – بعد صلاة الصبح معنا بـ "مسجد الهُدى" بنحو ساعتين!!

٩- طفلة تائهة

ما إنْ سلَّم إمام "مسجد الصحابة" من صلاة الظهر، حتى راعه إقبال شابٍّ يُمسك بيد طفلة تائهة لم تبلغ بعدُ العامين، فارقتها حُمرة الخجل لتتملكها صُفرة الخوف والوجل، كانت شاحبة الوجه، قلقة الأسارير، تتمتم بكلمة "ماما"!

أثَّر منظر الطفلة فيمن بقي من المصلين، إلا أن "مُعز" كان أكثر المتأثرين بالطفلة حيث هُرع إليها، قربها من صدره، وابتسم لها ببراءة ليبث فيها الطمأنينة والأمان.

وأسرع "حسن" فأشار إلى ولده بإحضار عصير وبسكويت تخفيفاً عن الطفلة وإلهاءً لها، لا سيما قد شرعت التائهة في بكاءٍ خفيض حين ازداد عدد الناس من حولها!

اقترح أحدهم أن يُنادى بمكبر الصوت لتنبيه مَن بالخارج لوجود طفلة تائهة، بعد سرد وصفها والتعرف بصعوبة من الطفلة على اسمها.

وقبل الشروع في استخدام المكبر للتنبيه، سأل "معز" – وهو من الحريصين على إصابة السُّنن وتوخيها – عن حكم نشد الضالة في المسجد.. ثم دار هذا الحوار:

معز: إخواننا، في البدء.. هل يجوز إنشاد الضالة في المسجد؟

محمود: لا يجوز. يقول الله تعالى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تدعو مَعَ اللَّهِ أَحَداً} [سورة الجن: الآية ١٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد الضالة في المسجد فقولوا لا ردها الله عليك" رواه الترمذي.

لطفي: ما أعلمه أنه لا يجوز. فع عن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً نَشَدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: مَنْ دَعَا إِلَى الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا وَجَدْتَ؛ إِنَّمَا بُنِيَتْ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ). أخرجه مسلم.

علي: على رسلكما.. فالأمر خلافي بين الفقهاء، فمن نظر إلى عموم وظاهر هذه الأحاديث والآثار وغيرها؛ قال بحرمة أو كراهة إنشاد الضوال بالمساجد.

أما من تعمَّق في أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتحقيق مناطها، فتراه يجيز إنشاد التائهين بالمسجد أطفالاً كانوا، أو شيوخاً، أو من المتأخرين عقلياً.

معز: يا علي، هذا الكلام يحتاج إلى تفصيل وبيان، ودليل وبرهان.

محمود: نعم.. فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: "نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الشراء والبيع في المسجد وأن تنشد فيه الأشعار وأن تنشد فيه الضالة" رواه أهل السنن.

لطفي: هذا صحيح.. فعن ابن سيرين قال: سمع ابن مسعود رجلاً ينشد ضالة في المسجد، فأمسكه وانتهره وقال: "قد نهينا عن هذا" أخرجه عبدالرزاق. وقال ابن العربي: ولا ينشد في المساجد الضالة إجماعاً.

علي: اسمعوني بارك الله فيكم.. الإعلان عن طفل ضائع في المسجد ليس من إنشاد الضالة، وليس به بأس، ولا تتناوله الأحاديث الناهية عن ذلك؛ لأن الضالة كما يقول الإمام ابن عرفة: نَعَمٌ وُجِدَ بغير حِرز محترم، فيدخل فيه الإبل، والبقر، والغنم، ولا يُطلق على الضائع من الإنسان ضالة!

معز: زدنا أكثر يا علي، متعنا الله بك.

محمود: لست مقتنعاً بكلامك يا علي، فلا يجوز تعريف اللقطة ولا الضالة في المساجد فإنها لم تبنَ لهذا.

وقد روى مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ سَمِعَ رَجُلاً يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ: لَا رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا).

لطفي: أجدني حتى الآن مائلاً إلى أن الضالة المنهي عن إنشادها في المسجد ليست خاصة بضالة البهائم بل كل شيء يُقتنى، كما قال المناوي في شرح الجامع الصغير عن المراد بالضالة في الحديث: وهي أصالةً الحيوان، وهنا أي شيء ضاع.

علي: ذكرتُ في البدء أن الأمر فيه خلاف بين العلماء، أما الطفل التائه فإنه يجوز النداء عليه في المسجد؛ لأنه ليس في معنى الضالة، وحفظ النفوس من المقاصد العليا للشريعة، بل هو إحدى كليات الشريعة الخمس.

وإنما النهي المفهوم من الأحاديث الشريفة يعالِج ما فيه إعلان عن دنيا وماديات من تجارة، وبيع، وشراء، وضوالّ غير بشرية، أما ما كان من إعلان لخير أو معروفٍ فلا بأس به.

معز: قلبي يجنح لكلامك يا علي، فربما عجَّل الإعلان عن هذه الطفلة إلى ضمها لصدر أمها الولهى، وأبيها الحزين، وإخوتها المفزَّعين.

محمود: نعم.. لكننا يجب أن نؤخر العاطفة والعقل، ونقدم عليهما الدين والشرع.

لطفي: هذا إن كان هناك خلاف أصلاً يا "محمود" بين الشرع والعقل، والقلب والنقل.

يبدو أن الأمر واسع وخلافي حقاً كما يقول "علي"، فمن هدي النبي حتى في الحروب ومعاملة الأسرى ألا يُفرق بين أم وطفلها، بل دلت الآثار على عدم ترويع الطيور والتفرقة بين الأمهات وأفراخها.

علي: فتح الله لكم جميعاً.. إذن الحكمة من النهي عن إنشاد الضالة، والبيع والابتياع داخل المسجد هي تصغير أمر الدنيا، وتحقيرها في النفوس، وذلك ينطبق على الأموال.

أما حفظ الأنفس من التلف فأمره أعظم، وهذا حيث كان الناس في المسجد، أما استخدام مكبرات الصوت في غير أوقات الصلوات فالأمر فيه جائز بالأحرى.

وقد سُئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: أُعلن في أحد المساجد أنه يوجد إفطار كل يوم خميس، كما أُعن عن دورات العلم، وعن حملات الحج والعمرة فما حكم ذلك؟

فأجاب: " هذا الإعلان لا بأس به؛ لأنه إعلان فيه دعوة للخير وليس المقصود به بيع ولا شراء، المحرم أن يعلن عن البيع وشراء أو تأجير واستئجار مما لم تبن المساجد من أجله، وأما الدعوة إلى الحج والعمرة، والخير وإطعام الطعام، والصدقة، ودروس العلم فلا بأس به".

أعلن "معز" – مطمئناً تماماً – عن الطفلة بمكبر الصوت، وإن هي إلا دقائق حتى طرقت أم الطفلة التائهة باب المسجد مصوبة نظرها نحو مستوى طول ابنتها، وحين تلاقت الأعين صرخت الأم: "ساندي" ابنتي!! فهرولت الطفلة صوب أمها قائلةً بفرحة غامرة: "ماما"!

انفعل كل مَن شهد احتضان الأم لابنتها وأيقنوا أن "علي" كان محقاً في لفتهم لإباحة نشدان التائهين من الآدميين بالمسجد؛ لأن نهي الأحاديث الواردة كان موجهاً إلى الماديات لا إلى الإنسانيات، وإلى القوالب لا إلى القلوب.

لكنَّ "محمود" أطرق حزيناً، ثم فتح مكتبة المسجد ليفهم معنى {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تدعو مَعَ اللَّهِ أَحَداً}...

تلكم الآية الكريمة التي يتلوها منذ عشرين عاماً..

لكنه لم يفقه مرادها الصواب ولم يفهم معناها الحق!

١٠- عمارة لا تكذب

صار الكذب آفة تغشى المجالس والمحافل، وتعم المثقفين والدهماء، وتضرب بأطنابها المتعلمين والأميين، والرويبضة والجهلاء.

وإليكم هذه المشاهد الحياتية من خلال مواقف متكررة ربما جرت أحداثها في كل سكن وعقار، ودارت بكل منزل وعمارة ودار.

نادٍ ودار مناسبات:

منذ عشرين عاماً مضت التقيت المعلم (ج) المقاول صاحب العقار الذي أسكن فيه حتى الآن، فكان مفوهاً مقنعاً رغم لهجته وأصوله الصعيدية، فكان ممن يجيد عرض بضاعته.

فشققه إن كانت عالية مرتفعة الأدوار، فهي غير مكشوفة ولا مجروحة، نهارها جنة الشتاء، وليلها "فيينا" الصيف وفردوس المساء.

والشقة لدى المعلم (ج) هي عروس، يُحسن تقديمها، مُشعراً الضن والتمسك بها، مظهراً الأسى والتحسر والندم على اضطراره لبيعها أو تأجيرها.

تراه يبيع الشقة بعد تقدمة وتمهيد، ومدح وتدبيج في طولها وعرضها، ومتانتها وارتفاعها، وجدتها وهوائها، إن كانت قِبْلية فما أحلاها وفصول الشتاء التي قد تطول، وإن كانت بحْرية فما أروعها منتجعاً صيفياً متاحاً بالمجان في كل وقت وآن.

استأجرت – في النهاية – من المعلم (ج) شقة بعد بلاغة منه وبيان، ومعسول حوار وإغراء نقاش، وقد زاد حثه على إتمام الصفقة بأنه سيخصص سطح الدور الثامن والأخير لنادٍ أو دار مناسبات.

أو ربما لمكان يصلح للسمر أو ممارسة دروس خصوصية ونحوها، لا سيما لمن كان معه

أبناء في المراحل المدرسية؛ حتى يأخذ المعلمون راحتهم في علو صوت، أو أداء شرح، أو ترفيه نفْس وروْح!

وإن هي إلا سنوات قليلة حتى شرع (ج) في بناء الدور الثامن فخِلنا أنه الشروع في الوفاء بالوعد، وإبرام العقد والعهد، وبعد تمام البناء والبنيان، خصصها الرجل لنفسه وأسرته، ثم فتح الله عليه فأجَّرها، وحين أوسع الله عليه أكثر باعها تمليكاً، فيا ضيعة النادي ويا حسرة على دار المناسبات، ووا أسفاه على من بادر بثقب أذنيه قبل مثول القرط ونجوز الحَلَق!

إيصال إيجار:

من باب التعاون بين الجيران، قد يأتي محصل إيجار الشقق فلا يجد بعضهم موجوداً، فإذا بأحدهم (ع) يتصل بي راجياً أن أدفع له الإيجار حتى يعود من سفره خلال يوم أو يومين. ولا يجد المرء نفسه إلا ملبياً لطلب كان بمقدوره، وكلنا ذوو أعذار قد تدفعنا ظروفنا لمثل هذا الطلب.

ثنَّى (ع) طلبه بأنه لو أمكن كذلك دفع إيصال الكهرباء وفي الأخير الحساب يجمع الأحبة. فعلتُ ذلك لمراتٍ عديدة على تأخير من (ع) وتسويف، إلا أن الرجل كان يدفع في النهاية وإن كان متراخياً.

وفي شهر ديسمبر ٢٠١٨ طلب (ع) إليَّ أن أدفع نيابة عنه إيجار شهر ديسمبر، وكلها أيام قلائل وسيعطيني المبلغ (مائتي جنيه) حين عودته من السفر من محافظة الشرقية (على بعد ٣ ساعات) من القاهرة.

مع الأسف كان هذان هما الطلب والإيصال الأخيرين؛ لأني قررت ألا أجيبه ثانية لا في إيصال غاز أو كهرباء، أو مياه أو إيجار، فقد أرسل قيمة ما دفعته إيجاراً لشقته عن شهر ديسمبر ٢٠١٨ في اليوم العاشر من شهر يونيو الجاري ٢٠١٩!

قسائم كهرباء:

انتقل للعمارة منذ ثلاث سنوات تقريباً عريس جديد (م)، يتمتع (م) بحسن التخلص كذباً ومَيْناً، إذا رأيته يعجبك جسمه وسمته، شاب فلسطيني ثلاثيني مفتول العضلات أبيض البشَرة، بجبهته ما يشبه علامة الصلاة، على الرغم أنني لم أره مرة في مصلى، أو زاوية، ولا مسجد، ولا جامع حتى أيام الجمعات والأعياد!

كان (م) يجهز شقته للعرس، فرجوته ألا يلقي بأي مخلفات في منور العمارة، ولا أمام شقته فهذا يؤذي الجيران ومغبته وخيمة على الجميع، فقال في براءة الأجنة فضلاً عن الأطفال: عيب يا أستاذ أحمد، أنا اتصلت بـ القمام (الزبال) وسيأتي لحمل المخلفات بعد قليل!

ثم سمعتُ أشياءَ تلقى في المنور، وكنت مسؤولاً حينها عن متابعة نظافة العمارة، لكني لم أهتدِ إلى مَن ألقاها، شككتُ في جاري العريس (م).

فقلت له بعد اطلاعي على مخلفات من النقاشة: ألم أطلب إليك ألا تلقي شيئاً في منور العمارة؟ قال: عيب يا عم أحمد هذه الأشياء ليست من عندي ولا تخصني!

وفي مرة أخرى، كنت أقمُّ المنور بنفسي، فإذا بي أجد الدليل على أن (م) هو من يرمي مخلفاته من نافذة شقته إلى أعماق المنور، وجدت مخلفات مبثوثاً بها إيصالات كهرباء كثيرة لسنوات خَلتْ تخص عداد الشقة التي اشتراها (م) من المالك الذي كان قبله!

روى البخاري في صحيحه: "حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً وإن الكذب يهدي

إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً".

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١١- ألوان من الاحتيال

يبدو أن كثيراً من المصريين قد تأثروا بالفنون عامة، وبفني التمثيل والرقص خاصة؛ من ذلك أنك لو وجهت ناظريك إلى المناطق الشعبية يجابهك في أحشائها تأثر الأطفال بالأعمال الفنية أفلاماً ومسلسلاتٍ.

ومنذ ما يزيد عن ربع قرن انسلخ من الزمان، وعقب عروض الأفلام التراثية كفيلم "عنترة بن شداد"، كنتَ تجد الأطفال بعد انتهاء الفيلم يسارعون إلى عمل السيوف من الورق أو الصفيح.

ويهرعون إلى صنع النبال الخشبية، مع شيء من التروس والمَجَانّ والحِراب إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، حاكين بذلك أبرز المشاهد والمعارك إثارة وعنفاً التي شاهدوها بفيلم "عنترة."

الآن.. قد تغيرت الأفلام القديمة ليحل محلها صوت وأسلوب بعض الفنانين كالفنان محمد سعد "الليمبي" بما يتمتع به من قدرة خاصة على الغناء، والرقص، وأداء أدوار الثَمِلين والمخمورين.

ثم من بعده تجد الفنان "محمد رمضان" قد أضحى في صدارة تقمص الأطفال وتقليد ومحاكاة الفتيان والشبان لأدواره، وهكذا تجد أذواق وانفعالات التأثر بالفن تهبط بمرور الزمن من علٍ وشاهق إلى سفول ووهاد!

وإذا تركنا براءة الأطفال وعرَّجنا على الكبار وجدنا تأثر الكبار بفني التمثيل والرقص واضحاً، فكم من كبير يتقمص الكذب تمثيلاً يُجريه أشبه بالحقيقة.

وكم من كبير لا يخجل أن يرقص في قارعة طريق، أو في محفل من ذكور أو إناث، بل الأغرب أن تجد ذكراً قد احترف تعليم الرقص الشرقي للنساء!

أما رقص النساء لأدنى داعية من نجاح، أو عيد ميلاد، أو خطوبة، أو شَبْكة، أو تنجيد، فضلاً عن زَفاف، فهو أكثر من أن يُرصد، وأربى من أن يوصف، وأوسع من أن يُشار إليه ويُرمق.

بل إن فتيات مصر الآن حين يشرعن في إعداد أجهزة العرس تراهن يجهزن قبل شاشة العرض وجهاز الكمبيوتر – أو معهما – بدلة رقص يُتوِّجن بها أمتعتهن وملابسهن!

الآن.. أزعم أن هناك فناً ثالثاً قد فشا بين المصريين بعد فني التمثيل والرقص هو فن "الاحتيال"؛ وهو فن يرتبط بفن التمثيل بأوثق العرى؛ لأنه بقدر نجاح المحتال في التمثيل وإحالته إلى واقع بتعبير الوجه، وتقسيم الملامح.

هذا كله بعد ديكور الملبس والمتاع، ودموع التماثيل المستجلبة بماء البصل والفُلفل الحار، وربما بالقدرة الفائقة على احتراف التمثيل وامتهانه مع كثرة التجارب وطول الزمن.

والآن إلى هذه المشاهد..

الطاقم الصيني:

هذا المشهد له بطل ومساعد، ينادي البطل على بيع طاقم الصيني بسعر مغرٍ، مع عرضه ليتأكد الناس من جودته جيداً، وزميله الآخر الداعم له ينتظر بالسيارة مع باقي الأطقم حتى يفرغ البطل المحتال من عرض الطاقم الصيني الذي معه كاملاً.

ومع عرض آخر قطعة من الطاقم، وبعد أن يحلو الطاقم في عين المشتري خامةً وشكلاً، وجودة وسعراً، يتم التفاوض على السعر والفصال إلى أن يوافق البائع المحتال على الثمن ممتعضاً.

فإذا همَّ المشتري بأخذ الطاقم بادره البائع قائلاً: هذا الطاقم للعرض فقط، سأُحضر لك كرتونة جديدة لم تُفتح أو تُمس.

وإذا ما تسلَّم المشتري كرتونته زاغ البائع المحتال وراغ برفقة مساعده، ليكتشف المشتري بعد فوات الأوان أن بداخل الكرتونة التي اشتراها قوالب طوب قد اصطفت وتزينت!

زبد أم بطاطس؟

إنه مشهد يتكرر كثيراً، بطلته امرأة ريفية لهجةً وزياً، أسلوباً وسجية، حديثاً وحواراً، هي ريفية بكل ما تحمله الكلمة من دلالات وإيحاءات؛ لأن ريفيتها هي سبب نجاحها في احتيالها، فالمعهود في بلادي أن أهل الريف أكثر صدقاً، وأقل لؤماً وخبثاً من غيرهم من أهل المدن.

هذه المرأة تبدو كأنها أخذت لتوها "حمام لَبَن" حيث تتضوع من أنفاسها وملابسها رائحة اللبن، تجوب البيوت، أو تقتعد على جنبات الأرصفة، أو بين أحشاء الأسواق وحنايا الميادين.

والمحتالة دائماً ما تغير أماكن تواجدها، حتى لا يُهتدى إليها ويُعاد إليها صفقات الزبد أو لنقل صفقات البطاطس المسلوقة المهروسة التي كستها المحتالة قشرة زبد ورائحة سمن.

وهي تحاول إقناع ضحاياها بما تحمله من بيض وجبن إضافة إلى الزبد لتكتمل لوحتها الريفية، وتتم ملامح أدواتها من النصب والاحتيال؛ ليكتشف ذلك كل مشترٍ أراد أن يحيل الزبد إلى سمن بالإذابة على النار التي سرعان ما يعلو دخانها ويشيط جِرْمها ليكشفا عن خُدعة الريفية وجُرمها واحتيالها.

أطباق بيض عفن

قد يصلح لبطولة هذا المشهد غلام يافع، إلا أن الأفضل لحبك هذا الدور من الاحتيال أن تكون البطلة فتاة صغيرة يبدو من حالها ومرآها سقوط أطباق بيض منها على الطريق.

وربما استعانت بطفل أو غلام تؤزه أزاً باتفاق بينهما على صدمها وسرعة الفرار من مسرح الجريمة لتقع أطباق البيض على الأرض مع محاولتها إدراك ما يمكن إدراكه من البيض المكسور الفاسد أكثره!

هذا إضافة إلى دموع منها مصطنعة، وقسمات من الحزن والأسى مرتسمة، وشيء من البكاء والنحيب، ثم الصمت الشارد مع وضع يدٍ على الخد وأخرى ممتدة تستقبل بها عطايا وتعويضات المارين المتأثرين وعطفهم!

تجميد أو فك مائتي جنيه

هذا المشهد لا بد له من بطل ومساعد، المساعد قائد مركبة سيارة كانت أو موتوسيكلاً، وإن كانت السيارة أكثر إقناعاً في عملية النصب، لا سيما لو كانت محملة بشيء من بضاعة أو آثارها.

أما البطل فهو يجلس على يمين السائق ماداً يمناه من الشباك أثناء سير العربة، سائلاً المارة عن عنوان بنك معين ليورد له مبلغاً من المال، ثم إذا أجيب عن سؤاله يطلب من مجيبه أن يجمد أموالاً معه لفئة المائتي جنيه.

فإذا أخرج المسؤول عن عنوان البنك ورقة المائتي جنيه لم يخطفها المحتال وينطلق بها، بل يَعُدُّ المبلغ مفكوكاً لكنه ينقص جنيهات قليلة (ثلاثة جنيهات مثلاً)، ويعطي المبلغ للمار فإذا بالمار يعد المبلغ ويرده قائلاً: ناقص ثلاثة جنيهات.

فيأخذ المحتال المبلغ من يدي المارّ ويزيد له الجنيهات الثلاثة الناقصة، بعد أن يستل خُفية من المبلغ ثلاث ورقات من فئة الخمسين جنيهاً كان قد أودعها آخر المبلغ، ويعطي الزبون المبلغ مفتوحاً على الجنيهات العشر التي تممها له وأكملها.

فإذا بالمنصوب عليه إذا راجع عدد الجنيهات العشر يجده مضبوطاً، ثم بعد أن يشكر المارُّ المحتالَ ينطلق الأخير وصاحبه بالسيارة انطلاقاً مدوياً لا يلويان على شيء، ليكتشف المارّ أن الجنيهات الثلاثة المردودة كان ثمنها ثلاث ورقات من فئة الخمسين جنيهاً قد سحبها النصاب بعد أن شغل الزبون بالقليل الفرعي وأذهله عن الكثير الأصلي!

كرسي متحرك

البطل هنا مصري وافد بالإمارات يريد أن يعيش بالفهلوة والتحايل، حين يحار في مكان يُودع فيه سيارته مدة زمنية لحاجة ما، إذا به يجور على الأماكن المخصصة لذوي الاحتياجات الخاصة من معاقي الحركة.

ثم سرعان ما يكتشف رجل المرور تعديه فيسجل عليه مخالفة، فيستعين المصري المحتال بصديقٍ لشراء كرسي متحرك مدولب من أقرب مكان.

المصري المحتال يقود صديقه الجالس على الكرسي كأنه معوق إلى السيارة أمام رجل المرور الذي لا يملك إلا أن يبادر بالاعتذار عن مخالفته لهما بعد أن يمحوها فوراً، وبعد أن يخرج المحتالان من المأزق يذهبان لإعادة الكرسي للمحل مدعيين بأن هذا الكرسي غير مريح!

نعوش الموتى

بلغ الأمر أن تغشى الحيل وألوان النصب والاحتيال أروقة المساجد وساحات الجوامع، ليس بادعاء الحاجة بسبب انقطاع السبيل، أو مرض الزوجة والأطفال، أو التسريح من

العمل والوقوع في براثن البطالة، وإنما هذه المرة النصب والاحتيال يُنسجان برفع نعش يحمله بطل القصة ومساعده ومجموعة كومبارس.

فبعد صلاة الجُمُعة يصطف الناس لصلاة الجنازة، فإذا بأحدهم يمنع الصلاة على الميت ودفنه؛ لأن له ديناً قدره ١٠ آلاف جنيه في عنق المُتوفى، ولا بد من استيفاء الدَّيْن قبل الصلاة على الميت ودفنه، ليحدث بالمسجد شيءٌ من اللغط، ثم التأثر والانفعال، ثم التصدق وجمع المال.

ثم سرعان ما تُسهم إدارة المسجد مع المصلين في جمع قدر الدَّيْن ليكتمل نصابه، أو يقترب من التمام، ثم تدور مناقشة وحوار وسجال لإقناع الدائن أن يتجاوز بكرمه عن الألف الباقية أو الألفين، ليوافق الدائن المحتال على مضض فتقام الصلاة على الميت.

وينتظر الناس للحظات بعد صلاة الجنازة حمل النعش والخشبة، فلا يجدون أحداً يهم برفع ولا حمل، يلتمسون الدائن فلا يجدونه، ويبحثون عن المدينين فلا أثر لهم، ثم يفتشون النعش بعد ما يطول الوقت فإذا به خشبة فارغة من دون جثمان!

١٢- تصابي الخريف

"شوكت" و"صادق" زميلا عملٍ في العقد الخامس من العمر، تضمهما حافلة العمل ذهاباً وإياباً قرابة الساعة، كما تجمعهما المؤسسة التي يعملان بها مدة ثماني ساعات.

إلا أن الزميلين يختلفان كثيراً من حيث السلوكيات والتصرفات، ومن قبل هما مختلفان من حيث الطِّباع والتدين والأفكار، ومنطلق الرؤية والمسار.

وإلى أحداث القصة..

صادق: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

شوكت (متشدقاً بعلكة وقد تدلت من رقبته سلسلة): صباح الفل يا "زُمُل."

صادق: تأخر اليوم كثيراً أتوبيس العمل.

شوكت: ليس بأيدينا حيلة ولا عمل.. استمتع بشمس دافئة والْحَظْ معي هذا القمر!

صادق: شمس وقمر!.. النيران لا يجتمعان.. هذه الشمس ساطعة لكن لا قمر الآن.

شوكت: مرَّ بنا قمرٌ منذ ثوان.. ألم تلحظ قدّاً ممشوقاً وغصنَ بان.

صادق: كبرنا وصرنا خمسينيين يا رجل.. فارعوِ واستحِ ودعْ مثل هذا للشبان!

شوكت: الشباب شباب القلب، وإني لأشد صبوةً وجذوةً من جميع الفتيان.

صادق: والشعر الأبيض بعارضيك.. وترهل جلدك في خديك.. وتغضُّنه أسفل عينيك؟!

شوكت: لا يغرنك بياض سوالف ولا تعجل بنقد ولوم.. ذاك أثر سهر طويل وإرهاق وقلة نوم.

صادق: سائق المؤسسة على غير عادة بنا يتصل!

شوكت: لا بد أن تعرَّض لمكروهٍ أو ربما هناك عطل أو خلل.

صادق: "آلو".. لن يستطيع التحرك من مكانه قبل ساعتين.

شوكت: إذن هيَّا لركوب تاكسي أو مترو أو نسير محطتين.

وفي المترو..

على حين هُرع "صادق" ليترنم بشيء من القرآن والذكر، كان نظر "شوكت" موجهاً لفتاة في مؤخرة عربة المترو.

ابتسم "شوكت" للحسناء مترددا فبادلته ابتسامة أذكت نضارة وجهها وهجاً على وهَج وأَلَقاً على ألق، وأضاء لها ثغرُها عن لآلئ كأنها خُلقت في التو حين ابتسمت!

أشار شوكت إلى الفتاة واثقاً متشجعاً بعد ابتسامتها التي ردته لشرخ الصبا، وأيقظت فيه فوران الشباب، فبادلته الفتاة إشارةً كشفت عن رقة وعذوبة ورغبة في اللقاء.

أومأ شوكت للفتاة غامزاً بإحدى عينيه أن الملتقى المحطة المقبلة، فأرخت الفتاة خصلة شعر كأهداب الفراش مالت مع إيماءتها رضاً وتشوّقاً بتَحْنان.

جاءت المحطة فطار قلب "شوكت" ناسياً زميله "صادق"، وأقبل صوب الفتاة التي أسرعت نحوه أشد إقبالاً وأكثر فرحة وابتهاجاً.

وقبل أن ينبس "شوكت" بكلمات العشق، وهمسات الغرام، إذا بشاب أسمر البَشَرة كان رديفاً لـ "شوكت" في عربة المترو يسبقه إلى الفتاة، لتشتبك يد الشاب بيد الفتاة في لحظة لم يتعانق فيها الجسدان، لكن تعانقت منهما العينان، واضطرب فيهما القلبان، ليقف "شوكت" مبهوتاً للحظات وقد ازدحم المكان..

فقال الشاب والفتاة عَجِلَينِ في نَفَسٍ واحدٍ كأنهما على اتفاق: من فضلك أفسح لنا الطريق يا "عمو!!"

كاد "شوكت" يُغشى عليه، إلا أنه سرح لبرهة بفكره فيما تغنَّى به العندليب الأسمر في رائعته "فاتت جنبنا"، ثم صدعت إذاعة المترو بصوت عبدالحليم حافظ صادحاً في الذكرى الأربعين لوفاته:

أي دمعة حزن لالالا.. أي جرح في قلب لالالا.. حتى نار الغيرة لالالا!

١٣- خط أحمر

نشأ مدحت في أسرة متوسطة الحال لكنها كانت طموحة، كان شاباً رياضياً، يعشق الكرة، ويحب الرياضة والعَدْو، مفتول العضلات أقرب إلى القِصر، لكنه طيب القلب أبيضه، وإن ضَرَبَتْ بشَرَته وكَسَتْ وجهه سُمرة واضحة.

ساير مدحت – كأبناء جيله – بعض الفتيات لكنها المسايرة التي لم تتجاوز الحوار والهمس إلى شيء من العبث أو اللمس، فقد كانت الأعراض خطاً أحمرَ لم يغفل عنه! ثم ما لبث أن تديَّن تديناً فطرياً لم يمنعه أن يعشق الكرة ويولع بالسياسة رصداً وقراءة، متابعة وتحليلاً.

وفي مطلع الثمانينيات أطلق مدحت شيئاً من لحيته، وواظب أكثر على صلوات الجماعة وخاصة صلاة الفجر، ثم لأسبابٍ أمنية مرت بها منطقة شبرا المظلات؛ وبحجة المحافظة على الأمن الاجتماعي وجد نفسه ضمن معتقلين قرابة ثلاثة أعوام، وإن لم يدرِ ما السبب المباشر لتوقيفه واحتباسه!

أفاد مدحت كثيراً من محنته حبيساً في وقت كانت تسمح فيه الأنظمة للموقوفين بالقراءة واستكمال الدراسة، وتحقيق شيء من الأحلام والآمال، فحفظ أكثر من نصف القرآن الكريم، ثم خرج للحرية بعد أن عَرَف أن السياسة خط أحمر يحرم متاخمته ولمسه فضلاً عن انتقاده وغمزه ولمزه.

والحق أن إطلاق سراح مدحت كان إثر إلحاح من والديه على الله – سبحانه وتعالى – في الدعاء بأن يفرِّج عنه كربته وغمه.

لقد كان مدحت باكورة الأبناء الستة، فله شقيقان وثلاث شقيقات؛ وهو الابن البار الواعد الذي يُنتظر منه ما لا يُنتظر من سواه، ويُرجى له ومنه ما لا يُرجى من غيره.

عَمِل مدحت سنواتٍ فنياً بإحدى شركات المقاولات، وكان لا يزال كَلِفاً بمشاهدة المباريات الكروية ومتابعة الأحداث السياسية، وحين أراد أن يتزوج اختار صاحبة الدين.

فكَّر مدحت فقط فيمن إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته..

فلم يهتمَّ بانتقاب أو سواد، بل كانت قرينته محجبة في احترام ووقار، في تدين وسطي لا تعصب فيه ولا غلو.

أراد مدحت أن ينتعش مادياً لا ليُسعد زوجته وابنهما الوحيد فقط، بل ليستطيع أن يُغدق على والديه وإخوته، فاعتزم السفر إلى المملكة العربية السعودية.

كانت فُرص العمل والحج والاعتمار موفورة أكثر في هذه الحقبة من الزمان.. فقضى سنواتٍ عِدَّة في غربته، أحياناً يصطحب زوجته وابنه، وأحايين يتركهما بمصر توفيراً وقصداً.

عاد مدحت بعد قفزة ووفرة اقتصادية حققها خلال خمسة عشر عاماً من الاغتراب، ساعد خلالها والده ووالدته وإخوته، ولم ينسَ نصيب زوجته وابنه، لكنه دوماً كان يقدم حاجات وطلبات والديه على حاجيات زوجته وابنهما.

عاتبته زوجته كثيراً في أنه دائم الاهتمام بالوالدين وإخوته ربما على حسابها وابنهما، فكان حاسماً في ذلك لا يفتر أن يقول:

هؤلاء إخوتي إذا فقدت واحدة أو واحداً منهم لن أعوضه، وهم في حاجة ونحن قد أغنانا الله من فضله، أما أمي وأبي فهما خط أحمر لا كلام ولا مساس!

بدأت السن تتقدم بمدحت فبلغ الخمسين من عمره، ثم اشتد عليه مرض الصدر الذي ربما كان بسبب شربه النرجيلة التي كان يجد في تعاطيها سلوى وتسلية عن كبت ومعاناة فكرية وسياسية، لا سيما بعد أن فقد أباه الذي كان له نِعْم الوالد والصديق.

اشتد المرض بوالدته، فأنفق عليها مُغدقاً لتشفى وتسلم، لكنه كان مرض الشيخوخة والوداع. أخذت الأم العجوز المريضة من مدحت كل وقته حتى اضطُر لترك العمل شهوراً ليتفرغ لعلاجها ومساعدتها، أحضر لها الأطباء والممرضات، وحينما أنفت الممرضات من متابعة أمه تابعها بنفسه!

ماتت أم مدحت، فحزن عليها حزنه على أبيه وأكثر، وتداعت لذلك صحته، فأُصيب ببؤرة سرطانية بالرئة، ثم قضى بالمستشفى اليوناني بالقاهرة بعد رحلة معاناة أكثر من سنتين بالمستشفيات.

وبعد فترة من وفاته قال أحد أقارب زوجته لها: كان مدحت – رحمه الله – أسمر البَشَرة، وقد شاركتُ في تغسيله، فما سر طاقة النور البيضاء التي رأيتها تشع من وجهه؟

قالت: بره بوالديه، وإنفاقه عليهما ما لم ينفق على أحد، فحين استنكفت الممرضات رعاية وتطبيب أمه بالمال، طلب مني أن أشاركه خدمتها فكنت أساعده.. لكنَّ عملي صرفني أوقاتٍ كثيرة عن خدمتها.

ثم دخلت عليه مراتٍ فإذا به – وحده – يمسح عنها الأذى ويميطه ويعطرها ويوضئها ويذكِّرها بالصلوات.. فقلت له: أتفعل هذا ولك زوجة وشقيقات ثلاث؟!

قال: زوجتي، لم أمنع أحداً من بر الوالدة، ولا تستكثري هذا على أمي.. فأمي آخر خط أحمر في حياتي!

١٤- بوفيه مفتوح

في منطقة موغلة في الشعبية، غارقة في العشوائية، كأبي قتادة والمرج والمطرية، تلوح لنا أسر كثيرة يجمع كلاً منها سمات مميزة تغلب على عُظْم أفرادها.

فمنها الأسر التي يتعلق أفرادها -رغم رقة حالهم- بالملابس والأزياء وموضاتها على أشد ما يكون الاهتمام.

ومنها كذلك أسر تهتم بصيحات الموبايلات متابعة وتبديلاً، شراءً وتغييراً، ومنها من تتسم سلوكيات أغلب أفرادها بالمبالغات والأوهام التي ربما تاخمت الكذب، أو عانقت الأحلام.

قصتنا عن أسرة من هذه الأُسر رقيقة الحال، يأسرها الطعام؛ نظراً واشتهاءً، تذوقاً وأكلاً، تطفلاً أو شراءً، يستخف أفرادها أريج الفواكه وعبيرها، ويهز كِيانهم فوران المرق وأزيزه.

وتعصف بأركانهم رائحة الشواء، وتفتنهم المحافل والموائد في مروءتهم، وتراودهم المآدب والدعوات المفتوحة عن تعففهم وكرامتهم.

تتمنى هذه الأسرة أن يكون العام كله رمضان؛ لا للصيام والقيام، والزهد والتقشف وتلاوة القرآن؛ بل لأنهم لا يكادون يطهون شيئاً أو يطبخونه في يوم من أيام رمضان الكريم، ولا في ليلة من لياليه الفوَّاحة العطرة.

هذه الأسرة المكونة من: الزوج، والزوجة، والابن، ينطلق ثلاثتهم قُبيل شهر رمضان الكريم، متجولين يتابعون إعلانات الموائد، وحين يستهل الشهر الكريم يقسِّمون أنفسهم كل واحد منهم يذهب إلى مائدتين وقت الإفطار، وإلى أخريين قبيل السحور.

يبدأ كل واحد منهم بالمائدة الأسرع في إعداد الإفطار وتقديمه، ثم يُثنِّي ثلاثتهم بمائدة أخرى ترجئ الإفطار إلى ما بعد صلاة المغرب، ويصنعون قريباً من هذا المسلك مع عامر موائد السحور المبذولة والمبثوثة.

وهم لا ينسون نصيبهم من دنيا الادخار وحمل أشياء من غنائم الموائد إلى البيت مما خفَّ وزنه، وغلا سعره، ولذَّ طعمه!

يروح كل واحد منهم قُبيل الإفطار والسحور خميص البطن جوعان، ويعود بَطِناً كسلانَ ريَّان، ثم يغفو ليهضم ما التهم فإذا هو عبد مقهور لسلطان النوم لا يوقظه إلا قرب السحور ودنو الفجر.

هكذا يمضون رمضان كله في تناوب وتنافس لا يُحسدون عليه؛ لذا ففرحتهم بمقدم شهر رمضان تربو مراتٍ على فرحتهم بعيد الفطر، ففي العيد إيذان بانتهاء الموائد، وتقويض عروش المآدب، وبالعود إلى حياة رتيبة لا تُقام فيها مآدب طعامٍ إلا لِماماً.

الشخصيات:

الأب: شوقي شومان.. عالي البنيان، ضخم الجثمان، كبير الأذنين، غائر العينين.

الأم: شوقية.. سمينة العود، متوسطة الطول، يزيد مقاس ما ترتديه كل عام رقماً أو رقمين، وينمو وزنها كل أسبوع رطلاً أو رطلين.

الابن: شومان.. صنو أبيه إلا أنه جاحظ العينين، لا تفارقه ابتسامة عريضة بريئة تكسبه شيئاً من البلاهة مع مخايل طفولة متأخرة.

وإلى أحداث القصة..

شوقي: تأخرنا اليوم شويتين على المائدتين.. الفطار والسحور.

شوقية: نبدّر بكرة حبتين.. ونروح بعد العصر بساعة ولا اتنين.

شومان: السنة دي موائد رمضان لا تخلو من زحام على الطعام.

شوقي: الرجل الهُمام يحقق أهدافه بالتمام من غير رغي وكتر كلام.

شوقية: متنسوش.. أهم حاجة.. نعمّر النهاردة التلاجة.

شومان: ومننساش كمان شيء آخر.. عندنا مكان لسه في الفريزر.

شوقي (متثائباً): الآن إلى الراحة والهضم والنوم.. ما ألذ رمضان وأجمل الصوم!

شوقية: صدقت يا أبو شومان.. يا ريت السنة كلها رمضان!

شومان: بحب الشهر الكريم.. لا خسسان فيه ولا رِجِيم.

شوقي (بعد قليل يرى نفسه متصفحاً جريدة يومية): ياه.. إنها فرصتي وحلم حياتي!

شوقية: ايه عندك هناك.. إعلان عن لحم ودجاج.. ولَّا تكون تشكيلة أسماك؟

شومان: يمكن إعلان عن وجبة جمبري وحمام.. أو كبدة وكفتة وكباب؟

شوقي: اجهزوا بسرعة عشان نروح.. ده إعلان عن بوفيه مفتوح!

شوقية: طيب والنوع ده من الأكلات.. فيه أماكن للسيدات؟

شومان: طبعاً يا ست الحبايب.. والغايب ملوش نايب.

وفي البوفيه المفتوح..

شوقي (متلمظاً مُتعباً من كثرة الأكل): ما لي النهارده.. أنا مش طبيعي.. مش دي أكلتي.. ولا ده أدائي.

شومان (مداعباً لأبيه): بابا.. تَقِّلت ولا إيه.. شكلك عجِّزت يا بيه!

شوقي: آه.. نَفَسِي.. هوا هوا.. بيبسي بسرعة.. سفن أب أو فوَّار.

شوقية: سلامتك يا شوقي.. دي عين وصابتك يا جملي!

شومان: بابا.. ما لك بجد.. وشّك بقى ألوان.. يا ناس الحقونا أوام.

شوقية: ما لك يا راجل.. يا لهوي يا مصيبتي.. يا ناس انجدو جوزي شوقي!

شوقي (بعد طوارئ إسعافية وعملية جراحية):

آه.. فين شوقية؟.. فين شومان؟.. وايه اللي على بطني ده كمان؟!

شوقية: سلامتك يا سبعي.. كلنا فداك يا عمري...!

شومان: بابا.. بيقولو بره: لا حركة ولا كلام ..لا طعام ولا ماء.. حالتك تدبيس معدة واستئصال أمعاء.

شوقي: اخرس.. يا كداب يا عبيط يا بهيم.. أنا معدتي بومب.. وجسمي سليم!

شوقية (باكية): خلاص يا شوقي ارضَ بالمكتوب.. عصائر ومسلوق.. وإبر في العضل وحبوب.

شوقي (صارخاً): لا.. لا.. اسكتي يا وليّة.. حرام عليك يا شوقية..

يا رب فرصة واحدة أخيرة نهائية.. حرَّمت حرَّمت طفاسة ودونية!

شوقية (تُفيق على صرخات زوجها النائم بجوارها في البيت):

شوقي، ما لك.. اللي بيك.. قلقتنا عليك.. قوم دوغري على المائدة واحنا في رِجليك.

١٥- حوار في أتوبيس

الحافلة مكان يجتمع فيه أمشاجٌ من الناس، قد يكون أحدهم مفكراً، أو موظفاً، أو عاملاً، أو تاجراً، أو معلماً... إلخ.

الراكبون يستقلون الأتوبيس قعوداً أو واقفين، تجمعهم متون السيارات وتفرقهم الوُجهات والمحطات، لكنهم جميعاً حتماً سينزلون خلال الرحلة أو عند انتهاء الطريق.

دعونا نرَ كيف يتعرض ركاب المواصلات العامّة – كل يوم – لاستغلال متنفذي السلطة ومهدري المال العام.

الشخصيات:

السائق: سيد.

المحصل: رفاعي.

الموظف: كمال.

العامل: خميس.

وإلى أحداث القصة..

سيد (عابساً متأخراً): الوقوف فقط في المحطات، لا تهدئة بميدان أو ملفات، ولا أعذار لديَّ بأطفال ولا سيدات.

رفاعي: فلوس فكة يا حضرات، من غير وجع قلب وخذ وباقٍ وهات، ومقعدي يظل شاغراً دون مساس أو توسُّلات.

كمال: بدأت رحلة العذابات.. سائق ومحصل يتحكمان بالوقوف والتحركات.. فماذا لو كانا وزيري نقل ومواصلات؟

نترك مديري المؤسسات والهيئات.. لنركب مع مديري حافلة يتأخران من دون تجريم لهما أو لفت نظر وخصومات.

خميس: يا فتاح يا عليم.. يا رزاق يا كريم.. يا رب اكفنا شر كل لئيم.

سيد: يا رفاعي، ستأكل "كشري" اليوم أم "فول وطعمية".. المهم.. اعمل حسابي في الطلبية.

رفاعي: اليوم أنا جوعان.. والفول والطعمية بملء "التنك" جديران.. توقف بنا عند "عربية سلطان."

كمال (ساخراً): الآن.. سينزل الكمسري العسل لشراء الخبز والمخلل، والفجل والبصل. وفي المحطة القادمة.. سينزل رفاعي الغضنفر لشراء ما طاب وتيسر من الشاي والسكر.

خميس: اصطباحة زفت وهباب.. لا تزال هناك وقفة للسجائر وشراء ولاعة أو أعواد ثقاب.

سيد (طَرِباً): رفاعي، تعالى تعالى.. تعالى تعالى.. هنا هنا جنبي.. الناس هنا هنا حلوين.

رفاعي: خير يا باشا.. بشر يا زعيم.. خطط وفكِّر وأنا دوماً ذراعك "اليمين."

سيد: هذا الدور الأول والأخير.. عندنا في الحارة فرح وجيراني قصدوني في توصيلة وتحميل.

رفاعي: طلباتك أوامر يا بطل.. نوصل العفش والناس للفرح، ونعود عندنا في المساء.. لندرك واجب العزاء.

كمال: متى ينطلق بنا أتوبيس دون تلاعب بالركاب نزولاً منه وصعوداً لغيره.. وسيناريو هذا موعده قبل غيره.

إن لم نتأخر في الذهاب لأماكن العمل.. تأخرنا في الإياب مع السآمة والتعب، والملل والكلل والنَّصَب.

خميس: ليس هناك من فائدة.. بلد حقه الحرق والهدم.. وشعب همّ وغمّ.. خَلَتْ وجوههم من الحياء والدّم.

كمال: لا بد من شكاية وتظلم وبلاغات.. لا بد من تغيير وإحلال وتبديل، لا بد من مُساءلة عن تسيُّب وإهمال وتقصير.

خميس: شكاوى وبلاغات.. تشكو لمن؟ لناظر محطة إن جاء يوماً فطَّروه ومضى، أم لمفتشِ طريقٍ لم نرهُ منذ دهرٍ انقضى.

سيد (هَزِجاً ثم منفعلاً): الناس كده مش طِعمين.. لا طائل من تحرير شكاوى في الموظفين.. الأتوبيس دولةٌ.. رفاعي حُكومتها وأنا الرئيس الزعيم.

رفاعي: تمام يا ريس.. معك يا زعيم.. انتبه لخريطة طريقك ودعك من غوغاء مُغفلين أو شانئين مُغرضين.

سيد: رفاعي.. يا حكومتي يا ابن الأكابر؟.. صحيح ماذا سنفعل هذه المرة في التذاكر؟

رفاعي: سهلة يا ريس.. بلاغ للجراج والوردية بعطل مفاجئ على الناصية أو قُرب "الشرابية."

سيد: وحين تأتي نجدة المعاينة والإصلاح.. لاحظ يا رفاعي أننا لا نزال في باكورة الصباح؟!

رفاعي: قبل ما يوصلوا بالسلامة.. بلاغ بعمل السيارة وانطلاقها من جديد.. ثم بلاغ بعطلٍ آخر شديد.

كمال: يا ربي هل من مهرب أو مفزعٍ لعهد من لدنك جديد..

ضقنا ذرعاً بإفساد شعبٍ حاضره بلطجة وماضيه حلم سعيد!

١٦- قطار الأفكار

عاد ثابت متأخراً بعد سهرٍ طويل في عمله، تناول عَشاءً خفيفاً، ثم غسل أسنانه، وتوضأ ليصلي الوتر وينام.. وإن هي إلا لحظات حتى رأى نفسه داخل قطارٍ كان متجهاً إلى القاهرة، وفي إحدى عرباته المتواضعة، جرى حوار بين المسافرين حاولوا به درء الملل، وطي السفر.

كان الحوار لبعضهم نفثة مصدور، ولآخرين ومضةَ فكرٍ، ولفريقٍ محاولةَ إصلاحٍ، على حين سكت آخرون لقناعتهم بألا فائدة من الحديث، ولا جدوى من النقاش.. فلا أحد غالباً يتخلى عن فكره، أو يتنازل عن وُجهته، أو يقلع عن رأيه.. كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ!

الشخصيات:

فاروق: موظف عاشق لأخبار الرياضة.

ثابت: موظف مأزوم سياسياً.

مهدي: شيخ معمم.

مينا: مواطن مسيحي.

لحظات: راقصة أفراح.

طُلبة: كمسري القطار .

وإلى أحداث القصة...

فاروق: ندعو الله أن يصل بنا القطار في موعده قبل بدء المباراة.

ثابت: مباراة؟ ظننتك ستتحدث عن أزمة اقتصاد، أو ما يحيق من شدائد بالبلاد.

مهدي: فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ، ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ.

مينا: ما دامت المحبة تملأ القلوب، فسيسود السلام –لا جَرَمَ – كلَّ الشعوب.

لحظات: يبدو أن جلستي وقعت بين مثقفين، وأنا لا يطربني غير المصفقين.

طُلبة: تذاكر يا سادة يا حضرات، أو هو التطويق بالزيادات إن لم تبرزوا الاشتراكات.

فاروق: كرهنا كلمة زيادة، زيادة بالماء، وفي الغاز والكهرباء، وبالسلع والمواصلات والغذاء.

ثابت: الآن بدأتَ تشعر بهموم الناس، هكذا لا حديث –إذن– عن دوري ولا كاس.

مهدي: الرياضة والفن أفيون الشعوب، تُلهي الناس من الشروق إلى الغروب.

مينا: الرياضة والفن قد يكونان حمامتي سلام وادعتين، أو سلاحين لنشر الظلام والإرهاب ماضِيَيْن.

لحظات (متشدقة بعلكة): أفٍّ لكم! ألا تسكتون عن رياضة وسياسة وهمّ.. ووجع قلبٍ لا يأتي إلا بغمّ.

طُلبة: احتفظوا بالتذاكر حتى الوصول فمن فقدها غَرِمَ غيرها صاغراً قبل النزول.

فاروق: مصر هي أمي، وحب الرياضة إكسير قلبي ودمي.

ثابت: القلب لا يسع إلا واحداً، فعظِّم فؤادك من الدَّخَل، ونقِّه من الشريك والدَّغَل.

مهدي: أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ، وسبحان علام الغيوب، هو وحده مزيل الكروب.

مينا: القلب يعشق كل جميل، والمواطن بالخير والمحبة والسلام يبرهن أنه إنسان.

لحظات: هذا مأتم أو جنازة.. يا عالم كفانا من الحزن والترح.. أما من خطوبة أو فرح!

طُلبة: هكذا كل رحلة للقطار.. جدال ونقاش.. وخلاف ومَرار.

فاروق: أردتها رياضة فلم يُرضكم.. وقد صارت مأتمة بفضلكم.

ثابت: مرة أخرى رياضة وفن.. ألا تعرف أجورهم وحوافزهم وهداياهم.. كيف هي.. وكم؟!

مهدي: وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ، لا تكونوا قانطين يائسين.. أو حاسدين حاقدين.

مينا: لا.. هل يستوي من كانت حياته بين معاملَ ومكتباتٍ وكتب بمن ركل كرةً برأسٍ أو قدم؟!

لحظات: صحيح.. لا تستوي من هزَّت لساعاتٍ وَسَطَها.. بمن مَثَّلَتْ الأدوار دون هزٍّ ونَصَبٍ وسَهَر.

طُلبة: وهل سواء من كانت الأسفار شطر حياته الذاهب بمن يُجسِّد المشاهد أو يجول بالملاعب؟

فاروق: حقاً.. فهمت الآن لِمَ الطبيب يخون.. والمهندس لماذا يرتشي ويسقط ويهون.

ثابت: وسل المعلم والمحرر وذوي المِهَن.. أين الضمائر والقلوب وحق العمل؟

مهدي: نعم.. وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ.. وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ؟

مينا: العدالة مبدأ راسخ في كل دين.. والمساواة قانون يُظلُّ جميع المواطنين.

لحظات (متثائبة): عدالة.. ومساواة.. وحرية.. أنا في قطارٍ أم في مظاهرة سياسية؟!

طُلبة: كدنا نصل بالسلامة إلى المحطة الأخيرة.. السائق خفف السير وأطلق السرينة.

وفي لحظة سوداء من الزمن خاطفة، دوَّى بوقا قطارين، فداهم قطارَ الراكبين قطارٌ آخرُ مقبل كلمح بالبصر؛ فعم الظلام أرجاء المكان برهة.. ثم اشتعلت النار مع صوت انفجار، ليقفز ثابت من على السرير مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم.

١٧- حكاية عم سعيد

لاحظ منسوبو مدرسة "النور المبين" أن حارس المدرسة العم "سعيد" يبدو دائماً متهلل الوجه، دائم البشر، مطمئن النفس، واسع الصدر، مشرق الأسارير، رغم بشَرَته السمراء.

"سعيد" رجل أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، له نصيب من اسمه رغم رقة حاله، وشظف عيشه، قد رُزق بـ "أحمد" و"هند" اللذيْن تُوفيت أمهما وهما يجتازان شرخ الصبا إلى عتبة الشباب، وقد كافح والدهما من أجل تربيتهما وتعليمهما راغباً عن الزواج.

كان "سعيد" كثيراً ما يتمتم بكلمات غير مسموعة وهو يكثر من هذه التمتمة حين يكون قد أدى مهامه، وجلس على أريكته ليفتح ويُغلق البوابة للداخلين والخارجين من المدرسة وإليها.

تعوَّد "سعيد" أن يبقى دوماً على وضوء وذكر، إن هو نزل أو صعد، أو هو قام وقعد، حين يقمُّ الأرض، أو يرش الفناء، وحين يُصَعِّد ناظريه إلى السماء، وعند مسارعته لتلبية الطلبات والمهام، وعند سماع الأذان والنداء.

"سعيد" مدمن على الذكر حين يجوب جنبات المدرسة ليتفقد منافذها وسورها، وعندما يراقب مخازن المدرسة وملحقاتها.

وأكثر ما تراه ذاكراً حين ينصرف المعلمون والإداريون والطلاب، فلا شيء ساعتئذٍ يشغله، ولا مهمة تستقطب فكره، أو تصرفه عن عبادته ولذته.

تخرَّج "أحمد" (نجل سعيد) بالجامعة، ثم جاء دوره لتأدية الخدمة العسكرية، وقد كانت منطقة تجنيده نائية للغاية، ولم يكن بدٌ من أن يشكو "أحمد" لأبيه في إحدى إجازاته من التجنيد بُعدَ المسافة وطولَ السفر.

أحمد: أبي، أعاني كثيراً في وَحْدَتي من طي مسافاتٍ ووعثاءِ سَفَر.

سعيد: صبر جميل، لا مفر من واجبٍ ولن يُجدي ضيق ولا ضَجَر.

أحمد: وطني أفتديه بروحي والعُمُر، وفي قربي منك إسهامٌ وعمل.

سعيد: نجتهد بدعاءٍ وخَلْوةٍ وسَهَر، والله لا يردُّ سِهَامَ السَّحَر.

وفي زيارة هند (أخت أحمد وابنة سعيد) لأبيها، طلبت إليه أن يدعو لها بتيسير ولادتها، لا سيما قد رجَّحت تقارير الأطباء أن الولادة ستكون قيصرية، مع خطورة الحالة حيث الارتفاع في نسب الضغط والسيولة والسكر.

هند: أبتي، اقترب موعد ولادتي، فلا تنسني بجميل دعاءٍ وتضرُّعِ.

سعيد: اصبري ابنتي واطمئني.. وقَرِّي عيناً ولا تحزني أو تجزعي.

هند: قالوا ولادتك قيصرية فاخضعي.. وسلِّمي أمرَكِ لله ولا تفزعي.

سعيد: والله غالبٌ على أمره من دون نَزْفٍ ولا تخدير ولا مِبْضَعِ.

مرت الأيام.. وانتقل "أحمد" إلى كتيبة بالقرب من محافظته، ووضعت "هند" وليدها في سكينة وسلام، ثم استدعت إدارة المدرسة العم "سعيد" لأمر مهم وإعلام.

المدير: تفضل عم "سعيد" بالقعود.. لا وجل ولا خجل.

سعيد: شكراً سيدي المدير.. بين يدي أكثر من عمل.

المدير: من أول الشهر سترتاح من جهدٍ ومن طُول نَصَب.

سعيد: العمل نِعمة رغم العَناء، به الهناءُ وفيه لذيذ التعب.

المدير: لم تفهمني يا رجل، ستُحال إلى معاشٍ وتقاعد.

سعيد: الحمد لله على كمال النعم، وبلوغ تمام الأجَل.

وفي حفل تكريم المدرسة لعم "سعيد"..

المدير: يُحزننا فِراق عم "سعيد"، إلا أنها الأقدار والقانون والسُّنن.

سعيد: أشكر لكم حفلكم وتقديركم وما منحتموني مِن جُود ومِنن.

المدير: ماذا تنوي يا "سعيد".. وهل سترحل إلى البلد؟

سعيد: أرضُ الله واسعةٌ.. فنعم المجير ونعم الصَّمد.

المدير: هل ستفكر بوظيفةٍ أخرى أو في جديدِ عمل؟

سعيد: إن الحياة قصيرة وإن طال العمر وامتد بنا الأمد.

عَمِلْتُ بمدارسَ تعليمٍ وتربيةٍ وأدب، بين محاضن العلم والمكتبات والكُتب.

حياتي الآن أُهديها لكل مسجدٍ مع القائمين العاكفين والراكعين الساجدين.

١٨- مأساة ماجن

"رشدي" شخصية أنانية ماجنة مجادلة، عاش طفولته نزقاً ومرحاً، وقضى مراهقته طولاً وعرضاً، واستمتع بشبابه وفتوته على أوسع ما تكون المتع، وأرخى ما تلذ الحياة للهو والعبث.

لكن كهولته الآن شرعت في الأفول، وقوته أخذت في الاضمحلال والذبول، ورغم ذلك ظلت صبوته متأججة، وشهواته لا يفتأ يشحذها ويستثيرها، ورغباته لا يزال يُشعلها ويُذكيها مستغرقاً ومتقلباً في اللذائذ.

انكفأ "رشدي" على ذاته ولم يرَ في الوجود إلا متعة من لون واحد، هي متعة الإيناس بالنساء، حيث الحديث والنظرات، والاختلاط والاتصالات.

لقد حبس نفسه في زاوية ضيقة، فكل الذي يستميله ويستهويه وجه حسن، وجسد ممشوق، وضحكة مستهترة، وصوت خاضع، وحوار داعر، وفوق هذا علاقات مادية تُتبادل فيها الهمسات واللمسات في غفلة عن الدين، وغياب من العقل والضمير.

صار "رشدي" زوجاً فلم يُقلع عن العبث، ثم أضحى أباً فلم ينهه ذلك عن غيِّه، كَبِرَ بنوه ودبَّ الشيب في رأس زوجته التي تصغره بسبع سنوات، لكنه استمر يعبُّ من اللذات كؤوساً، ويبحث دوماً عن الجديد في عالم لا ينتهِ من الصديقات والخليلات.

في حوار لـ "رشدي" على المقهى مع "نبيل" (زميل دراسته وعمله) الذي طالما نصحه أن يُقلع عن علاقاته ونزواته، وأن عليه أن يخجل من سِنِّه إن هو لم يَخْزَ من نفسه وربه:

نبيل: ألم يأنِ لمسرفٍ أن يتوب إلى الله من جدل وفجور.

رشدي: وهل يكفُّ النحل عن رشف رحيقٍ ونشق زهور؟

نبيل: النحل يسعى بوحي من الله بالقرآن مسطور.

رشدي: النحل يُغريه رائحة وجمال ورحيق وعبير.

نبيل: النحل عفٌّ طاهر يسعى جاداً بأمان وسرور.

أحس "رشدي" بعد أن غادر المقهى لأول مرة بجفاف يغزو حلقه ويبدد لُعابه، ودوار يكاد يصرعه أرضاً، ثم أعمل ذاكرته فلم يجد نفسه قد تناول شيئاً مختلفاً أو غير معتاد.

دخل "رشدي" بيته منهكاً خائر القوى، يشعر بدبيب إعياءٍ يسري في جسده، تلقته زوجته المخلصة مشفقة خائفة عليه، ثم ساعدته في تغيير ملابسه وسجَّته بفراش، وتركته لتجهز له شراباً سريعاً ريثما تُعدُّ له الطعام أو تستدعي له الطبيب.

استيقظ "رشدي" من نومه مقنعاً نفسه بالعافية، وانطلق إلى عمله مستحثاً مجيء المساء ليدرك موعداً جديداً في الظلمات.

لكنه ما إن وصل إلى العمل حتى شَعَر بأعراض المرض تدهمه مرة أخرى؛ ما دفعه لمراجعة طبيب الشركة الذي طلب منه إجراء تحليلات وفحوص طبية عاجلة، وقد شك الطبيب في تداعيات السنّ من ضغط، وسكر، وقلب، وكبد.

مساءً وفي المقهى ذاته قابل "رشدي" زميله "نبيل"، فكان من حوارهما:

نبيل: ما لك يا رجل.. أشحوبٌ بعد نضارة.. وذبول وضمور؟

رشدي: أنا بخير.. مرضٌ عارضٌ سرعان ما سينجلي ويزول.

نبيل: ألا من عَودٍ قريب.. وتوبة نصوحٍ لرب غفور وودود.

رشدي: الله غني عن صيامٍ وسجود.. وقيام وركوع وقعود.

نبيل: يا مُجادل، هل سواءٌ قيامٌ لله وإعراض عنه ورقود؟

رشدي: ما قصدت.. فالله يغفر الذنب ويقبل التوب ويجود.

نبيل: كُفَّ عن جدالٍ وفسوق.. فغافر الذنب ذو عقاب شديد.

رشدي: دعني وربي فلو شاء لأمسيتُ متقلباً له في الساجدين.

اشتد بـ "رشدي" المرض، ووصل به الأمر للعناية الفائقة، وهناك بين الحياة والموت زاره "نبيل" ليدور هذا الحديث الأخير:

نبيل: لا بأس عليك يا صديقي.. سلامتك ألف سلامة.

رشدي: آه جاء وقت الحسرة.. وأقبلت ساعة الندامة.

نبيل: لا يزال الله يفرح بتوبة العبد وعودته والإنابة.

رشدي: أسرفتُ على نفسي وظلمتُ زوجتي وأولادي.

نبيل: تُب إلى الله متضرعاً.. يمحُ الذنب ويطوِ الزلل.

رشدي: أيقبل الله مَن عَصَاه ومنهُ فَزِع وفرَّ وهَرَب؟

نبيل (هامساً بعد أن أحس بدنو أجل صاحبه:(

أشهدُ أن الله رب واحدٌ.. وأنه الفرد وهو الصمد.

وأن محمداً خير الرسل.. وهو الشفيع وهو الأمل.

رشدي:

أشهد أني عبدتُ الهوى.. عشتُ لنفسي وحبِّ الذَّات.

وأن حياتي فُحشٌ وخَنَا.. وأني ما شبعتُ من اللذَّات.

١٩- موبايل الشيخ مسعود

"مسعود" خمسيني متزوج وله أربعة أبناء (ابنان وبنتان)، حياته رتيبة يسيرة، إلا أنها هانئة وسعيدة، يبدأها بصلاة الفجر في المسجد، وهي لا تفوته إلا مرتين أو ثلاثاً في العام حين يعتريه ما يغلب البشر من مرض أو غفلة، أو إرهاق وكسل.

عاد "مسعود" من عمله في موعده مع الساعة الرابعة عصراً، وكعادته صلى العصر جماعةً في طريقه قبل أن يؤوب إلى بيته.

كثيراً ما طلب إليه أبناؤه أن يغير شيئاً من وتيرة حياته الراكدة بلون من التنزه والتغيير والتطوير، إلا أن "مسعود" قد جبل نفسه على عبادات وعادات وعلَّق قلبه بالمسجد.

كان "مسعود" نادراً ما يترك المكوث بين المغرب والعشاء معتكفاً؛ وهو يتعاهد القرآن منفرداً وفي المقارئ، وإن كان يجد نشاطه أكثر مع الناس مرتلاً ومعلماً.

ينهض "مسعود" يومياً ليصلي الفجر حتى أيام إجازاته، ثم يتأهب للخروج إلى العمل، وأحياناً يذهب إلى عمله من المسجد مباشرة عقب أدائه صلاة الفجر فينجو من الكثير من لأواء المواصلات وبأسها، حاملاً معه مصحفه وفطوره في حقيبته السوداء، وفطوره رغيفان لا ثالث لهما، وخيارة، وحبة طماطم، وبرتقالة أو نحوها من الفاكهة.

ثم بعد أن يؤدي "مسعود" صلاة الضحى في العمل يُفطر بما تزود به، إضافةً إلى ثلاثة أقراص "طعمية" ساخنة يجلبها إليه ساعي الشركة التي يعمل بها، ثم يزدرد دواء النقرس حامداً لله شاكراً له.

كان "مسعود" سعيداً بحياته اليسيرة، وهاتفه البدائي الذي كثيراً ما كان يُثير سخرية أبنائه وتعليقات بعض زملائه وتندرهم، إلى أن دبَّرت "نعمة" زوجته مبلغاً من المال من جمعية رصدتها لشراء "موبايل تاتش" ذي خطين وزودته بباقة إنترنت.

وفي ذات يومٍ عاد "مسعود" من العمل عصراً، فألقى على أسرته التحية والسلام، ثم تناول معهم طعام الغَداء، وبعد الطعام دار هذا الحوار:

نعمة: عندي لك اليوم مفاجأة يا شيخ مسعود.

مسعود: بقلاوة.. أم أرز باللبن؟

نعمة: بل أهم وأفضل.. وأحلى وأجمل.

مسعود: إذن هو الجلاش.. أو كنافة بالقشدة.

نعمة: يا رجل!! موبايل جديد باللمس!

مسعود: وماذا أصنع به ومعي هاتفي العتيق وفيه الغَناء؟

نعمة: إنه صيحة قديمة قد مضى زمانها وأدبر.. فاقبل هديتي ولا تُخزني.

مسعود: ما كسرتُ خاطرك قطُّ.. هديتك مقبولة، وبين عينيَّ مصونة.

الأبناء: والآن يا أبانا إليك حصة مُكثَّفة شرحاً وتدريباً على الموبايل الجديد.

مسعود (بعد مرور نحو ساعتين من الشرح والتوضيح:(

كفى يا أبنائي، فهِمت وتعلّمت وتعِبت.. لقد اقترب موعد أذان المغرب.

بعد العشاء بنحو ساعتين قضاهما "مسعود" – لأول مرة – مع هاتفه الجديد مُختلياً، قام مسعود ليلبي داعي النوم، وبمجرد أن لمس "مسعود" فراشه غطَّ في سُبات عميق..

فتنة: أرسلت إليك طلب صداقة يا "أودي."

مسعود: "أودي"؟ أنا "مسعود."

فتنة: كنت في السابق "مسعود".. لكنَّ "فتنة" أسمتك "أودي."

مسعود: من "فتنة"؟ هل اسمك "فتنة"؟

فتنة (في تكسّر وخضوع): نعم. اسمٌ على مسمى.. تطَّلع إلى ألبومي وصوري.

مسعود: يااااااه حقاً أنت "فتنة".. أنت نَسْمَة بَسْمَة.. زهرةٌ ناعمة.. أو غزالة حالمة ساحرة.. بل فراشة ملائكية حائرة.

فتنة: فماذا لو رأيت هذا المقطع؟!

مسعود (متردداً للحظة في فتح الفيديو): تُرى ما فيه وما يحمله ويحتويه.. ثم يفتح الشيخ الفيديو.

فتنة (واثقة لاهية في تغنّج ومجون): هل بجوارك مناديل؟

مسعود (مرتبكاً): نعم.

فتنة (وقد أطلقت ضحكة لا يُسمع مثيل لها إلا في ماخور أو غُرفة نومٍ غائرة:(

امسح إذن ما تصبَّب من عرقك يا "أودي."

مسعود: كيف ألقاكِ.. أين أراكِ.. لا بد من لقياكِ؟!

فتنة: هكذا بسرعة ودون أن تعرف من أنا؟

مسعود: عرفتك ليست رقتك رقة إنسية، ولا بسمتك بسمة بشرية، وضحكتك تحمل أنغاماً موسيقية، أنت لمسة سحرية؛ ما أنت ببشر أنت أميرة أو حُورية.

فتنة: لم أكُ أعرف أن الشيخ أودي شاعر.

مسعود: إن من يرى شهي ما رأيت، ويسمع لذيذ ما سمعت.. إن كان جماداً تحرك ونطق، وإن كان غراباً غنى كبُلبل وصدح، وإن كان إنساناً رقّ من فوره وهام وشَعَر.

الآن فقط فهمتُ.. ما أبدع العندليب الأسمر حين غرّد:

قدك المياس يا عُمري

أيقظ الإحساس في صدري

أنت أحلى الناس في نظري

وما أنشدته كوكب الشرق:

هات عينيك تسرح في دُنيتهم عينيـا

هات ايديك ترتاح بلمستهم ايديـــا

فتنة: أردت غوايتك فأغويتني، وأرسلت إليك شباكي فصدتَني، لا يصلح للعاشقين إلا دفء اللقاء.

مسعود: في أي مكان كنتِ سرتُ إليك، وفي أي زمان حللتِ طرتُ إليك، أين أنتِ يا قَدري وقلبي، أين أنتِ يا غرامي وعشقي، يا أملي ومودتي، وعُمري وحبي، وحياتي وفتنتي.

"نعمة" وقد أيقظها أذان الفجر، فذهبتْ مسرعة تطمئن على الشيخ "مسعود" الذي لم يستيقظ حتى الآن، وكانت "نعمة" قد باتت في حِضن صغيرتها تتعاهدها بالكِمَادات الباردة، وقد ارتفعت حرارتها فجأةً بعد أن أكثرت من الطعام في وجبة العشاء.

نعمة تَطْرُق الباب (وَجِلةً): الفجر يا شيخ مسعود، شيخ مسعود.. أُذن بصلاة الفجر!

مسعود (لا يزال وجهه مُجللاً بابتسامة وبين يديه وسادة): يا الله! أُذن بالفجر.. لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون!

فتنة: ما بك ما دهاك الليلة.. ما الذي قعد بك عن القيام قُبيل الفجر؟

مسعود: رؤيا وفِتْنة... لا لا يا "نِعْمة".. بل كابوس ونِقْمة.

نعمة: ما تقول.. ماذا تعني يا شيخ؟

مسعود: أمسكي هاتفك، تلك هديتك، قد أثقلتني عن قيامي وصلاتي، وعبادتي وخلوتي. إليَّ بمحمولي القديم عَجِّلي إليَّ بمصحفي.

نعمة: حاضر حالاً.. (ومن بعيد): بِمَ تتمتم يا مسعود لا أكاد أسمعك؟

مسعود: صدق الله العظيم القائل: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ} [آل عمران: ١٤]. والقائل:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [التغابن: ١٤]

٢٠- يوسف والباشا

حين يفشو الجهل وينمو الفقر، ويكثر الفساد وينتشر المرض، وتتلاحق طفرات الأسعار وموجات الذل القاهرة.. حين يكون المشهد غابةً قويها لا يرحم، وضعيفها لا يفهم، وصغيرها ببغاء من دون وعي يُردد ويتكلم.

حين تدنَّس النفوس وتعلو قيمة الفلوس، حين يتحول الناس إلى ممثلين حتى على أنفسهم وذويهم، ويغيب صراط الشرع ويخبو سبيل العقل، ويجول الباطل ضارباً بأطنابه في كل حدب وصوب..

لا بد حينئذٍ من غيبوبة عَشْوَاء، وسباحة في بحر الوهم، وتهويم في فضاء الخيال المريض المتعلق بسراب الثراء الفاحش وأنى لصاحب الأوهام أن يجد ماءً خلف السراب!

ساعتها حين يموت المتوهم عطشاً أو يكاد وأثناء احتضاره فقط بين يدي الثرى والتراب يوقن أنه كان فريسة الاحتيال وخيطاً في شباك الوهم لدى محترفي العزف على وتري الغفلة والطمع.. وإلى قصتنا..

يوسُف والباشا:

الباشا.. رجل محتال متسلط ذو نفوذ وثراء ينتقي ضحاياه على عينه، ويصطنعهم لنفسه؛ ليكونوا من رجالاته وجنده، يسخرهم لتحقيق مآربه، واقتناص ضحاياه، وهم في ذلك تراهم مغيبي الوعي، مخدري العقل، ساهمي الطَّرْف مهوِّمين بين يقظة الطمع وسطوة الغفلة.

وهو لا يستخدم جنوده ولا يستعملهم حتى يرى أنه سحر عقولهم، وخبب أرواحهم، وخطف ألبابهم، وأذاقهم شيئاً من تسلطه ونفوذه وواسع علاقاته؛ لذلك تراهم ينقادون له انقياد الحَمَل الوديع لراعيه.

وهم كذلك يدافعون عن ساحته، ويذبون عن رحابه نقد أي ناقد، وتشكيك أي مشكك.. إنه الباشا أصلاً ومَحْتِداً، الكبير جاهاً وسلطة، والسيد آمراً وناهياً.. هو المطاع إن أمر، والمسموع إن أشار أو نظر..

الشخصيات:

(الباشا) رجل محتال متسلط ذو نفوذ وثراء.

(رجب): أحد جنود الباشا.

(مودي): سكرتير الباشا ونجل (رجب).

(إمام) حارس الباشا.

(رحيل) أحد ضحايا الباشا.

(يوسُف): البيه الثري النزيه.

**

الباشا (مُغضَباً متصلاً برجب هاتفياً):

رجب، هيا تعال بسرعة الآن.

رجب: أمر ساعدتك فوراً في الحال.

الباشا: يا إمام تعال هنا.. احضر الآن.

إمام: حالاً باشا سأدنو وأقترب.. تحت الأمر ورهن الطلب.

الباشا (مخاطباً إمام ورجب):

أريد شاباً وسيماً لتنسيق العمل.

إمام: أمهلني لآتيك بعشر.. واختر منهم أفضل شخص.

رجب: باشا.. وَلَدِي "مودي" هُو الأكفأُ وهْوَ الأجدر.

الباشا: كم عمره وطوله.. وكيف سمته وشكله؟

رجب (وقد نال الرضا): عشريني هو شمسي وقمري.. وأحلى من العسل.

الباشا: أحضره الليلة حين أُنهي شأني وأفرغ من عملي.

إمام: هل يأمر معاليك بجديدٍ؟

الباشا: نعم.. هناك حاجة لوظائف وعمل.

إمام: حسنٌ جداً.. وما التكليف يا سيدي؟

الباشا: أريد منك و"رجب" أن تنشرا الليلة الخبر.

رجب وإمام: كم وظيفة شاغرة.. وكم ألفاً للطلب؟

الباشا: عشر وظائف.. وخمسون ألفاً دون فصال أو نظر.

ذهب كل من "رجب" و"إمام" لإذاعة الخبر، وبث ما الأمر به صَدَر.

رجب: ما تقول يا "رحيل" في وظيفة وعمل؟

رحيل: توظفتُ مذ زمن ولله الحمد والمنن.

رجب: ستأخذ ضعف راتبك غير البريستيجِ والهُبَر.

رحيل: في أي هيئةٍ.. وأين العمل؟

رجب: مع سفراء ووزراء ومندوبي دول.

رحيل (وقد أخذته سكْرة من غفلة وطمع): كم تريد مني ومتى الظَّفَر؟

رجب: خمسون ألفاً يا رحيل لا جدالَ ولا بَطَر.

رحيل: أما يمكن أن أقدم مبلغاً من الخمسين والباقي على مَهَل؟

رجب: لا قسطَ ولا مقدَّم عندنا.. خمسون ألفاً كامِلة مُكمَّلة.

دفع "رحيل" المبلغ في غفلة منه وطمعٍ بغية أن ينال العلا، ويصير من سُراة القوم، ومر على دفعه المبلغ أكثر من عام، وحينما ألحَّ في السؤال وطلب التعيين:

الباشا: تمر البلاد بأزمات شِداد.. ألا يصبر هؤلاء الأوغاد!

إمام: نعم يا باشا، عليهم أن يصبروا أكثر من هذا ويوقنوا ويأملوا.

رجب: وهل مرور عام وأكثر مدة لا تُطاق.. وتُسأم؟

الباشا (فَرِحاً): لاحت صفقة العمر يا رجال.. لكنها تتطلب كثيراً من المال.

إمام: مُرنا ننفذ سيدي فنحن نترقب جديدَ أمرٍ ونترصد.

الباشا: اجمعوا لي ملايين عدة وأسرعوا.. فأرض المدينة لا تُعوَّض.

رجب: لكن بأي شيء نُمنِّي الناس ونُرغِّب؟

الباشا: بالقرب والوصول والاتصال والحظوة.. ومن سيدفع اليوم ألفاً جناه بعد عامٍ عشرة.

رجب (متحمساً في نفسه متذكراً يوسف بيه): هو وحده قد يدفع ألف ألفٍ أو أكثر.

اتفق "رجب" و"إمام" و"مودي" على زيارة "يوسف" بيه أملاً في إقناعه بالاستثمار في أرض المدينة، واتصلوا به وجاءهم مسرعاً رغم شواغله؛ ذلك أن "رجب" كان من قبل قد جمعه موقف بيوسف بيه فلمس منه الجود والكرم.

وبدا "رجب" مُقنعاً فيما يَعرِض ويرغِّب، و"مودي" كذلك كان يحاور مثل أبيه ويقلده، وأما "إمام" فلم يكن يعرف يوسف بيه ومن قبل لم يلتقه فكان يسمع ويؤكد ما يقال ويَبْسِم..

وفي مكتب يوسف بيه:

يوسف بيه: أهلاً وسهلاً بإخوتي، يا مرحباً بالكل يا مرحباً.

رجب: مرحباً يوسف بيه بكم.. لا غرو في داره المرء لا يُكرم.

مودي مخاطباً أباه: بابا مذ متى كنت أسعى للقاء يوسف بيه وأرغب؟

يوسف بيه: حبيبي، سلمتَ من كل سوء ومظلمة.. لي الفخر بلقائكم والشرف والسؤدد.

إمام: أنا حارس الباشا كما قدم "أبو مودي" في البدء وأوضح.

يوسف بيه: مرحباً بك يا كابتن خطوات مباركة.. تسعدنا زيارتك في كل وقت.

رجب: هذا إمام النقيب صديقي وابن عمتي.. وله في المدينة بعض الأسهم.

يوسف بيه: مرحباً به مُجدَّداً.. لكن هيا بنا للطعام والشراب أولاً.

رجب: قد خَبرنا قبل ودكم والكرم.. وجربنا طيب المطعم لديكم والمشرب.

يوسف بيه (في سخاء جادٍّ وعزيمة): أطلب لكم دجاجاً أم لحمَ ضأنٍ.. هيا قرروا؟

رجب وإمام ومودي (معاً): شكراً لكم سيدي.. أنعم الله عليكم وأوسع.

رجب: نريد فقط منكم أن تشاركوا بمشروع المدينة وتساهموا.

يوسف بيه: هذا مجاب لا محالة لكم.. لكن ليس قبل شرب كنزٍ وقهوة.

يوسف بيه شخصية ثرية ذات ملاءة مالية من رجال الأعمال، مهذب كريم خَجِل مُحسن في الإنسانيات والكوارث والمعضلات إن لُمِّح له بها.

لكنه إن رأى أحداً يحاول استغلاله أرخى له الحبال وأطمعه، حتى إذا استيقن صائده أن شباكه أحكمت بيوسف بيه وأوقعت.. ظهر ذكاء يوسف بيه في التملص والهروب المفاجئ وإلقاء شباك الصيد على غريمه...

وبعد اتفاق يوسف بيه على دفع مليون جنيه مساهمة مستثمرة ومشاركة لأفدنة المدينة العامرة، وترحابه بثلاثتهم، أعطاهم موعد التنفيذ ليأتوا إليه ويتسلموا المبلغ المتفق عليه..

رجب (مهاتفاً يوسف بيه): يوسف بيه، لا تنسَ فالموعد غداً عند العصر أو بعده.

يوسف بيه: لا تقلق "رجب" فعند العصر نلتقي بإذن الله أو قبيله.

إمام ومودي (يهامسان رجب): قل ليوسف بيه من الأفضل أن يكون قبل العصر لا بعده.

وعندما حل الموعد.. اتصل "رجب" بيوسف بيه ليؤكد اللقاء والتسلُّم:

رجب: يوسف بيه أنا آتٍ الآن لأسلِّم عليكم وأتسَّلَم.

يوسف بيه: من عيني، كما اتفقنا إلا أنه جد جديدٌ لدي وشرائط.

رجب: تفضل تكلم مُجاب الحديث.. ولك كلُّ ما به تأمر.

يوسف بيه: أريد الباشا أن يحُلَّ بمكتبي ضيفاً زائراً ومكرَّماً.

رجب (مُرتبكاً): الباشا لا يذهب لأحدٍ.. ومن قصره لا يتحرك.

يوسف: هذا شرطي لأقرضه إن كان لا يزال لقرضي يطلب.

رجب: ألا تكفي مكالمة من الباشا وحوار بالهاتف مُطوَّل؟

يوسف بيه: لا يكفي ولا بد أن ينجلي الباشا لي ويظهر.

رجب: يا ويلتي و"إمام" و"مودي" وكل عائلتي وأسرتي.

يوسف بيه: لمَ يا "رجب" العويل والنواح والتسخُّط؟

رجب: أخشى أن يكون الباشا الذي يلقانا ويأمر.. من ورائه آخر أكبر منه وأعظم.

يوسف: أحقٌ أنك أخذت مال "رحيل" وإلى الباشا دفعته؟

رجب: نعم.. نعم منذ أربعة أشهر أو ستة.

رجب (متردداً): لا لا يا يوسف بيه ليست المدة هكذا.. إنما هو عام يزيد ويكثر.

يوسف بيه: تُرى من أخذ مالاً مذ عام مأمون لأخذ زيادة وأكثر؟

رجب: يا ويلتي يا حسرتي قد زالت الغَمامة عن ناظري.

قد صار ثلاثتنا للباشا لقمة سائغة المطعم.

يوسف بيه: هو ذاك إلا أنكم ما زلتم من جنده وشباكه وبكم يتخطَّف.

يوسف بيه: سُحقاً لمن أكل الصغير ولم يزل يطلب فقيراً للأكل والتلمُّظ.

رجب: وما العمل يوسف بيه.. كيف الخلاص والنجاة.. أين المهرب؟

يوسف بيه: لا بد من رد المظالم والمغانم بسرعةٍ.. والعدل يطال الباشا وفيه يَحْكُم.

رجب: هو نافذ السلطان معه رجال كبار يذودون عنه لن يتركوه مُداناً مُجرَّماً.

يوسف بيه: استعن بالله جل جلاله.. ولا يزال بلدنا زاخراً بالقضاء الأبيِّ العادل.

رجب: سأمضي لإحضار "مودي" و"إمام" فكلنا مع العدالة حيث سارتْ وحلَّت.

يوسف بيه: وأنا معكم نصير ظَهير ومؤيِّد.. كفى مصر دَنَساً فقد تاقتْ لغُسْلٍ وتَطهُّر!

٢١- جبر الخواطر

إن مراعاة الأحاسيس أو جبر الخواطر –كما هو دارج على الألسنة – مبدأ إنساني عظيم، وملحظ ديني وشرعي أصيل، ذلك أن الإنسان كما هو مادة وحس، فهو روح وشعور ونفس.

لذلك كان من مبادئ الإسلام: "أحبب لأخيك ما تحب لنفسك"؛ ليضع المرء نفسه دوماً مكان الآخر ويجري على نفسه من المواقف والردود والبدائل والأحكام ما يُحب أن يُوجَّه إليه إذا كان مكان الطرف الآخر من المعادلة.

استمعت إلى دقائق من حلقة لبرنامج مصري عن "جبر الخواطر"، حاور فيه المذيعُ ضيفَه الذي كان يروي مواقفَ حياتية حدثت معه ومع ثلة من أصحابه يبرز بها أهمية "جبر الخواطر" في دفع الكوارث والمضار، وجلب المنافع والمصالح.

تتجلى هذه المواقف الحياتية بطريقة عفوية فطرية مع أصحاب النفوس السمحة، والقلوب الرحيمة، في تجليات وإشراقات تشبه ما لدى المتصوفة الصادقين والعارفين بربهم من العبّاد والسالكين... وإليكم قصتين:

شفاء من مرض السرطان:

هذه قصة فتاة فلبينية مغتربة تعمل خادمة في أحد البيوت العائلية الفارهة، وكانت الفتاة في أوج شبابها وريعان صحتها وحيويتها، وفجأة بدأ شيء من الورم يظهر على جسدها.

لاحظ أحد أبناء الأسرة هذا الورم حيث كانت الخادمة ترعى أولاده لخمس سنين خلون، وتقوم على شؤونهم، وتتفقد أحوالهم، ثم قرر الرجل أن يعيد الفتاة إلى بلدها إذ إنها لم تعد صالحة للعمل خاصة فيما يستقبل من زمان قد يتطور فيه مرضها ويستشري.

لم توافقه والدته على عزمه هذا، وكانت أمه خيّرة طيبة فقالت له: دعها نعالجها، فمن اللؤم أن نأخذها لحماً ونلفظها عظماً! وبالفعل حجزت الأم للفتاة المسكينة عند الأطباء ومراكز الأشعة والتحاليل المتخصصة.

وجاء يوم الكشف فسبقت الأمُّ الفتاةَ إلى العيادة الطبية لتتابع الإجراءات حتى تلحق بها الفتاة بعد أداء مهامها مع أولاد ابنها.

وتأخرت الفتاة واتصلت الأم بابنها فأصرّ على عدم ذهاب الفتاة إليها لا سيما أنها قد شغلت بمهام لأبنائه..

وهنا تدخلت ممرضة بالمركز الطبي فقالت للأم: ما رأيك أن تطمئني أنت يا سيدتي على صحتك ونجري الأشعة والكشف عليك؟

فقالت الأم: إنني لا أشكو من علة. قالت الممرضة: إذن لتطمئني على نفسك فقط؛ لأنك لن تستطيعي استعادة المبلغ.

دخلت الأم بدل الفتاة للكشف من باب الاطمئنان على النفس.. فإذا بالأطباء يكتشفون سرطاناً بادئاً بالأم سرعان ما عالجوه وبرئت الأم منه تماماً، ثم سافرت بعدها في رحلة للحج والعمرة شكراً لله بعد أن اطمأنت على صحة الفتاة الفلبينية وبرنامج علاجها.

إنقاذ عيادة طبية من الحريق:

أنهى الطبيب عمله بعيادته في وقت متأخر من الليل، وتأكد من خلو العيادة من المرضى، فأمر بإغلاق العيادة وعند نزوله للخروج قابله أحد المرضى وقد عرف أنه الطبيب من خلال حواره مع مساعديه.

رجا المريضُ الطبيبَ أن يعود أدراجه لتوقيع الكشف عليه فانفعل الطبيب قائلاً: تطلب إلي أن أعود بعد الإغلاق في وقت متأخر من الليل وأنا متعب للغاية وعندي عمل في الصباح الباكر؟

فقال المريض: قد أتيتك مسافراً من مكان بعيد وقد حيل بيني وبين المجيء في موعدي.. فأرجو المعذرة.. أطرق الطبيب هنيهة ثم قال بعد أن تذكر قصة رواها له صديق عن جبر الخواطر: هيا بنا لإجراء الكشف.

وما إن فُتحت العيادة حتى رأى الطبيب ومعاونوه بداية حريق في ستارة بسبب عطب في المكيف.. فخر الطبيب ساجداً شكراً لله.. ثم تبسم للمريض وقال له: أنقذتني شفاك الله وعفاك!

والآن.. تُرى هل حين أمر الله الأمواج أن تحول بين نبي الله نوح وبين ابنه كي لا يرى بعينيه مصرع ولده ويتألم كان من جبران الله لخاطر نبيه نوح، وحين فدى الله الذبيح إسماعيل بكبش عظيم كان ذلك جبراً لخاطر الخليل إبراهيم.

وحين منح الله نبينا محمداً – صلى الله عليه وسلم – قبلة يرضاها كان جبراً لخاطره الكريم، فما أوسع فضل الله على نبينا العظيم فكم من ملايين من المسلمين توجهوا ولا يزالون يتوجهون إلى قبلة رجاها النبي وارتضاها منذ فجر الإسلام وحتى قيام الساعة.

٢٢- النفعية وقهر الرجال

حذّر القرآن الكريم من اتباع الهوى وشَرَك النفعية في غير موضع، وضمَّت دواوين السنة المطهّرة تعوُّذ النبي -صلى الله عليه وسلم- من قهر الرجال، وإعجاب المرء برأيه.

ونعني باتباع الهوى والنفعية مسايرة النفس في مطالبها وشهواتها وشبهاتها وجنوحها للدعة والراحة والمصلحة.

أما قهر الرجال فمن الممكن أن نعرّفه بأنه نوع من التسلط الظالم، وضرب من الغبن القاهر، ولون من النرجسية المستبدة، وجنون من التلذذ بعذابات المقهورين من الضعفاء، والغارمين، والمرؤوسين، والمكفولين، وربما يمارسه بعضهم مع الزوجات، والأبناء أيضاً!

وضابط معرفتك -قارئي العزيز- لشخصية قاهري الرجال أن تختبر معاملة أحدهم حين يتسنم سلطة، أو يتبوأ مقعداً، أو يتملك زمام أمر، أو يتأمر على مجموعة أو فريق، أو يغتني بعد إملاق، أو يسود بعد جهالة، أو يتسلط إثر تهميش وأفول.

إن أي منصب يتغوله قاهرو الرجال كفيل بفضح أمرهم، وقمين بكشف سرهم، وجدير بتعرية طويتهم، وحقيق ببيان سودويتهم والإسفار عن قميء سفولهم.

وإليكم موقفين من المواقف الحياتية الواقعية..

مدير ورئيس قسم

كان (أ) زميلاً عادياً، التحق بالعمل مع رفقائه، لم يكن ودوداً ولا اجتماعياً، بل كان جافّاً فظاً غليظ الطبع، ثم لانت عريكته بعد لأي شيئاً ما، ولطفت بداوته هوناً ما.

وعرَفَت البسمة طريقها إلى شفتيه، وعابس وجهه وجبينه، ثم بعد حين من الدهر لاح منه صوت ضحكات، وصدر عنه هزات تبسُّمات، وانطلاق بشاشات.

لكن مع أسفٍ ظلت سطوة النفعية قابعة في قلبه، تسيطر عليه وتلفّه بأذرع كأذرع الأخطبوط.. ثم شرع (أ) في استكمال دراسته العليا، فأفاد من مكان وزملاء عمله أيَّما إفادة.

وللحقِّ اجتهد الرجل وما لبث أن اكتسب مهارة وسرعة في مجاله، وإن كان يخطو بخطى السلحفاة في التمدن الإنساني والحضاري والعلاقاتي أسلوباً، وردوداً، مناقشاتٍ وحواراً، ومنهج حياة.

لاحت للأستاذ (أ) فرصة قيادة فريق وشغل منصب مدير؛ اتصل بزميل سابق له الأستاذ (ع) سائلاً ومستفسراً، وطالباً خبرته المتواضعة.

بدوره، محّضه صاحبه (ع) النصح، وجرّد له الإرشاد والتوجيه، وأسدى له خلاصة تجاربه بما أفاء الله عليه وفتح، بل صمم له خُطّة لقاء، وبرنامج توجه، ومنهج إدارة.

وصل (أ) إلى سُدة الإدارة، وأضحى مديراً ورئيس قسم.. وبدا لشهرين تقريباً في نعومة ولطف، كان جو العمل طيباً، وبيئة الإنتاج واعدة.

ثم من أسفٍ أن انطمرت الشخصية الجديدة المتوددة الراغبة، وانجلت عن شراسة في الأوامر، وتعجيز في الدقة والمعدلات، وضغوط في الإنجاز والإنتاج، وخصومات وحسم للحوافز والزيادات.

بل كان فريق العمل جلوساً –كما هي حال الأسوياء– ظهورهم للحوائط على المقاعد متقابلين، فأمر بأن يتحولوا عن الكراسي كالمتخاصمين المتشاحنين؛ وذلك باستدارة المكاتب والوجوه إلى الحوائط؛ متعللاً بأن ذلك في صالح الأداء والعمل، وأدعى للسكينة وتحقيق المراد والأمل، وأدنى للتركيز والإنتاج والبعد عن الخطأ والزلل.

ولَكَمْ كانت فرحته حين خيّم على القسم صمت موحش كامد، وكآبة لافحة مضنية، في الوقت الذي كان يضبطه بعضهم – خلسة – مختلياً برسالته الخاصة للدكتوراه في "الفقه الإسلامي" درساً، وبحثاً، إعداداً، وكتابة.

حقاً ما أروعه من شيخ مُعمّم، وما أشد ورعه من مدير ورئيس قسم مُخوَّل، ويا لها من عدالة عُمَرية كان يحلو له أن يتشدق بها!

فقه الهوى ورحلة العمرة

كثيراً ما كان (ع) يسْخَر من سلوكيات (أ)، بل ويتندر به أمام الجميع؛ أملاً أن يُقلع (أ) عن غرابته وجفوته ونرجسيته؛ ما دفع الأخير لمخاصمة (ع) مرات عديدة.

ومن عجبٍ أنه في إبان إحدى نوبات هجر (أ) وانقطاعه عن الحديث مع (ع)، الذي كان في ذلك الوقت منتدباً للعمل بالمملكة وكان (أ) بالشركة الأم في مصر، رأى (ع) صاحبه (أ) وهو المزورُّ عنه، النافر منه، يبادره على "الشات" بالسلام من مصر ثم يُثنّي بأنه يريد شراء كتاب من مكتبة بالرياض فهل هذا ممكن؟!

حقاً إن المسلم الحق فضلاً عن الداعية والفقيه يحرص على أداء الصلوات في أوقاتها لا سيما في شهر رمضان الكريم، اللهم إلا ما كان من عذر شرعي كسفر أو مرض أو نوم عارض وغيره، لكن صاحبنا الدكتور الفقيه كان يربط حياته ودنياه برسالته لا بصلاته.

فكان يتتبع رُخص الصلوات والنوم عنها مراراً في شهر رمضان وغيره؛ بحجة التركيز في دراسته ورسالته واستقطاع الأوقات الطوال لها فكانت الصلوات تُرجأ من أجلها وتُسوَّف، وتُجمَع وتُؤخَر، ويُنام عنها سَلفاً وعمْداً؛ وهو يحسب في ذلك كله أنه يُحسن صنعاً، والغريب أنه يصدع بهذا الأمر ويجاهر به على سبيل أنه من باب الفقه الوسيع، والفهم العميق!

أخيراً.. جَمَعَتِ الزميلين: (أ)، و(ع) عُمرةٌ مباركة، فلاحظ (ع) أن الرجل في سفره كحضره، وفي عمرته كحِلّه، يستدبر العزائم وينحّيها، ويتوخى الرخص ويبتغيها، ويقفو آثار التسهيل والراحة ويدانيها، كأنه يتصور أن الله – سبحانه – يحب أن تُؤتى رخصه فقط، ولا يحب أن تُغشى عزائمه.

وحين تعجّب (ع) وقد لاحظ طوال الرحلة البرية إلى العمرة المباركة أن (أ) لا يكاد يتوقف عن قرقزة اللب، بادره (أ) قائلاً له: ما لك؟ لقد جهزت أمتعتي: إحرامي، وطعامي، وشرابي، وأعددت لطول الرحلة البرية كيلو جرام لب أسمر سوبر!

٢٣- مأساة شحاذ

فَشَتْ ظاهرة الشِّحاذة في بلاد كثيرة، وأقطار عديدة، منها بلادي التي زادت فيها الظاهرة للغاية بعد موجات من الغلاء وعصف بالأسعار، وقهر متلاحق آناء الليل وأطراف النهار.

وحكايتنا تحاول تقديم رؤية قصصية تُنفِّر من المَسألة والشِّحاذة والتسوُّل، وترغِّب في الكسب والسعي والعمل.. وسنرى خلال القصة أيهما أسعد للنفس التسول مع وفير المال، أم السعي وستر الحال، وما دور البركة مع جنون الأسعار؟

فإلى أحداث القصة..

كان "صابر" و"ماهر" عاملي نظافة بهيئة النظافة والتجميل، عُيِّنا معاً، وقضيا مدة خدمتهما بالهيئة متصاحبَيْن، ثم جاءت إحالتهما إلى المعاش وخروجهما من العمل في آنٍ، ذلك أنهما كانا نِدّيْن من سن واحدة.

وَاصَل "صابر" حياته الماضية في العمل بحياة أخرى جديدة سعيدة بدأها بعد إحالته إلى المعاش، واستهل "ماهر" أيضاً بعد تقاعده حياة أخرى جديدة لكنها لم تكن قشيبة بل كانت حياة بئيسة كئيبة، نَكَتَتْ وجهَه بنِكاتٍ سوداء، وأنهت حياته على غير ما يرجوه ويتمناه..

لقطاتٌ من حياة "صابر" و"ماهر" في ظل عملهما بهيئة النظافة والتجميل قبل التقاعد:

صابر: صباح الخير يا ماهر.. كيف أنت والأسرة والوَلَد؟

ماهر: صباح النور يا صابر.. الحمد لله هو الملاذ والمُعتَمَد.

صابر: هيا بنا إلى العمل.. فلطالما خفف عنا كبيرَ الألم.

ماهر: ما تقول يا رجل.. أهناك عمل يبدد الألم أو يمحو المِحَن؟

صابر: نعم يا صاحبي نعم.. فعند الشدائد والكُرَب يطيب الجهد ويلذ التَّعَب.

ماهر: عجيب شأنك يا صابر.. فما زلتَ تمزج عملاً بأمل.

صابر: حياتنا بل حياة كل البشر.. عمل وراحة ورضاً بالقَدَر.

ماهر: وهل راتبنا وأجر العمل كافٍ لعَائِلٍ أو أرمل.

صابر: احْمَد اللهَ فإننا أحسنُ حالاً من غيرنا، والبركةُ خيرٌ وأبقى لنا.

ماهر: الحمد لله.. هو الرجاءُ عساه يُغيِّر لأحسنِ حالٍ من وضْعِنا.

وفي ساعة الراحة مع منتصف الظهيرة، كان الزميلان يتناولان شظف طعامهما، وبارد شرابهما، برضاً من "صابر"، وتسخُّط من "ماهر"، وبعد أن يصليا الظُّهر كانَا يَخلُدان إلى قيلولةٍ وادعة، ثم ينهضان سريعاً لاستئناف العمل مجدداً:

صابر: هيَّا قم يا رجل.. كفى نُعاساً ما فاز قطُّ النُّوَّم.

ماهر (متثائباً): ما أعجلك يا صاحبي.. والنوم اليومَ كالعسل.

صابر: قُم فأمَامَنا لا يزال شارع طويل من أوله إلى آخره.

ماهر: انَصرَفَ المشرفُ اليوم لأمرٍ عَارِضٍ.. فدَعْكَ من حارةٍ ومن شارع.

صابر: لسنا عامِلَيْنِ عند المُشرفِ.. فمن ورائه ربٌ يُجازي ويحاسب.

ماهر (خَجِلاً): ما قصدتُ.. حقاً لم أقصد.. قد أردتُ اليومَ بعضَ التخفُّف.

صابر: قلت لك قبلُ إن راحتي وقت الدوام وفيه سروري ولذتي.

ماهر: إذن هيَّا بنا للعمل نستبق.. فأنا اليوم قد أسبقك.

صابر (مُتفكراً): تُرى ما تعني النظافة يا ماهر؟

ماهر: كنسٌ ومسحٌ ورشٌّ يا صابر.

صابر: حقاً صدقت.. فهل خَبَرْتَ ذلك في قلبك؟

ماهر: وكيف يكون بقلبي كنسٌ ومسحٌ ورشٌّ؟

صابر: كنسُ الشريكِ ورِيّ القَناعةِ ومَسْحُ الحَسَد.

وبعد إحالة "صابر" و"ماهر" إلى المعاش:

ماهر: قُل لي بربك أين البركةُ من راتبٍ بعد غلاءٍ وتقاعد؟

صابر: البركة خير يلفُّ الحياة ويَزينها.. بها يقنع المرء وبها يسعد.

ماهر: وأين البركةُ من دواءٍ ناجعٍ.. ومسكنٍ وملبسٍ ومطعم؟

صابر: هي في حنايا ذلك كلِّه لو بَصُرتَ أو تتأمَّل.

صابر: ما رأيك أن نعملَ معاً من جديدٍ ونسعد؟

ماهر: قد كَبِرْنَا ولم يَعُد السعي لمثلِنا مُجدياً.

صابر: لا.. بل لوافر صحةٍ لا بد من حركةٍ وسعيٍ وعمل.

ماهر: أفكِّرُ أن أرتدي مُهلهلَ ثوبٍ وملبَس.. وبمسجدٍ أو مَوْقِفٍ أطوف ثَمَّ وأجلس.

صابر: ويحك يا رجل.. أبَعْدَ الجِّد والعمل تستجدي المارّة وتسأل؟!

ماهر: قد بلغتُ من العمر أرذلَه.. ولا حيلةَ لديَّ ولا مَقْدرَة.

صابر: أما أنا فسأمكث حول جامعٍ لوضوءٍ وصلاةٍ وتَعبُّد.

ثُمَّ أبيع ما أسْطِيع من تُرْمُسٍ أو حِمّصٍ أو أشوي ذُرَة.

ماهر: ما عساه تُرْمُسٍ أو شي ذُرَةٍ أن يجدي.. وكم ستجني كل يوم وتكسب؟

صابر: هو التوكل والسعي والأمل.. وعند الله واسع الفضل والنِّعَم.

ماهر: أنا قاعدٌ بموقفٍ أو سياجِ مسجدٍ.. مَادّاً للناس بالمناديلِ يدي.

صابر: لا لا يا صاحبي.. حذارِ من تكفُّف الناس والمسألة.

ماهر: لن أستجدي أو أسأل.. هو المنديل يَبُوحُ ويُخبر.

صابر: المنديل تسوُّل سواءٌ هو ومدُّ اليدِ.. فلا تروغ ولا تهرب.

عبثاً حاول "صابر" أن يقنع "ماهر" بصرف وجهته عن الاستجداء والتسوُّل والتظاهر بالمسكنة، وبعد شهورٍ من عمل "صابر" وشحاذة "ماهر"، ذهب "ماهر" لزيارة "صابر" في مكان عمله:

ماهر: سلام عليكم خليلي كيف أنتم؟

صابر: وعليكم سلام الله تفضل ههنا.

صابر: هل لك في ساخنِ الذُّرَةِ أو لذيذِ التُرمُس؟

ماهر: ما لهذا جئتكَ إنما.. أدعوك لمثل ما صنعتُ فتربح.

صابر: معاذَ اللهِ أن أسألَ من الناس أحداً أو أتسول.

ماهر: دع عنك هذا واسمعنْ إني ادَّخرت ما يَنِدُّ عن العدد.

صابر: حسبي أني كفاني الله من فضله سؤالَ الناس والتذلِّل.

ماهر: أدعوك لكسبٍ هو أزيد.. وعملٍ سهلٍ لا يُكلِّفُ.

صابر: فراقٌ بيني وبينك إن هَمَسْتَ بفكرتك أو عُدتَ تُقْنِع.

وبعد عدة سنوات..

يمرض "ماهر" مرضاً شديداً، ويعوده "صابر" في المستشفى، وقد اكتسى وجه "ماهر" بصُفرة الموت، ورهق النهاية، وشحوب الهلاك:

صابر: سَلِمْتَ صديقي من واهية.. ونهضتَ قريباً بالعافية.

ماهر: أغثني صابر من داهية ألمّت بي ما لها من واهية.

صابر: صبراً ماهر ولا تَجْزَعنْ.. ولشافٍ قَديرٍ ألا فَافْزَعَنْ.

صابر: كم مريضٍ قام مُعافى من علَّته.. ورُبَّ ذنوبٍ محاها المرض.

ماهر: انقضى عمري وانتهى الأجل.. يا ويلتي من سؤال وتسوُّل.

صابر: صهٍ ماهر ولا تيأسنْ.. فعند الله عظيم المننْ.

ماهر: لئن قمتُ يا صابر من وَعْكَتي.. لأخدُمَنَّ بيتَ اللهِ والمسجد.

ولأكفرنَّ حقاً عن فَعْلتي.. فهلِ اللهُ مجيبٌ لي مقصدي؟

صابر: الله أرحم دوماً بنا.. وعند الله الصفح والمغفرة.

ماهر (مُحْتَضَراً مخاطباً ربه وهو يلْفِظ أنفاسه الأخيرة):

أشهد أن بيدك الهُدى.. ومنك الحياةُ وأنت الرجا.

وأن محمداً هو عبدُك.. صاحبُ الحوض والمرتجى.

وتَبّاً لمالٍ قد نِلْتُه بِمَدِّ يَدي.. وسوادِ وجهي وتسوِّلي.

إلهي اقترفتُ كبيرَ اللَّمَم.. وعفوك ربي يمحو النِّقَم.

صابر وقد أغمض عينيْ صاحبه:

سلامٌ ماهر إلى جنةٍ كعرض السماء أو هي أعرضُ.. وربٍّ غفورٍ يمحو الذنوبَ وسوءَ العمل.

٢٤- شيطانٌ في الغربة

كان كلٌّ مِن: "حماسة"، و"أكرم"، و"دهشور" ثلاثة مصريين جمعتهم الغربة ببلد شقيق، نجح اثنان منهما في الانتصار على النفس والهوى، وأخْفَقَ ثالثُهم رَاسِفاً في أغلال الدناءة، حيث أوقعت به شِرَاك الحسد وأحابيل الغيرْة، ونيران السِّعَاية والوِشَاية، وإليكم أحداث القصة.

في رحلة حج مباركة حج فيها "أكرم"، رغم فَقْرِه وعَوَزِه، إلا أنه كان يتوق للحج ومشاعره، من طوافٍ خَطِف لُبَّه، وسَعْيٍ شغف قلبَه، ومياه زمزم التي طالما كان يُمنِّي النفس بالتضلع منها.

كانت حَجَّةً مباركة، وإن لم تكن على "أكرم" فريضة واجبة، لكنه الشوق العارم، والحب الغامر، والهيام والتألُّه حين يعصف بالعاشقين، ويفرض سطْوته وناموسه على المحبين.

اقترض "أكرم" مبلغاً توَّج به نفقات الحج وسافر يَحدوه الأمل ويُزجيه الرجاء أن يفيء حاجاً مغفوراً له، إلا أنه ما لَبِثَ أن تعرَّض لسرقة في رحلة الحج بل لخيانة من مجموعة كانت تحج في الظاهر.

لكنهم كانوا لصوصاً أو ربما استزلهم الشيطان حين أودع "أكرم" حقيبته أمانةً لديهم، بعد صُحبةٍ لأيام من شعائر وعبادةٍ، ومؤاكلة وسعادة؛ وذلك خشيةَ أن تضيع الحقيبة منه في ساحة رمي الجمرات!

وبدموع غِزار رقراقة، وبدعوات حارّة مُضطرة، ناجى "أكرم" ربه ضارعاً: اللهم لك الحمد، أنت العِوَض بعد الفقد، والرجاء بعد الفناء، أهكذا ينصرف عبدك وضيفك ضائعاً مالُه،

منكسراً خاطُره وحالُه، أنت يا ربي المسؤول، ونعم المأمول، عَوِّض عبدك المأزومبانفراجة لا فقرَ بعدها..

كما غفرت بعد الحج لا شك ذنبه، اجبُر يا ربي كسره، وكفكف دمعه، واقضِ عنه دينه؛ فقد أمَّ رحابك، وقصد جوارك، ولاذ بجنابك، فأعزه بعد هوان، وأكرمه بعد حرمان، واقسم له من العز والانتصار ما يداوي به جِراح الانكسار.

استجاب الله بسابغ من العطاء، ووابل من الجود والسخاء، "وما كان عطاء ربك محظوراً"؛ ذلك أن إدارة الشركة وجهت المدير (حماسة) ومساعده الموظف (أكرم) لانتداب عمل بالسعودية استغرق ٤ أشهر تقريباً في سَفْرَتين اثنتين.

وعلى الرغم من أن "أكرم" لم يكن أكفأ الموظفين ولا أفضلهم، وبرغم تقدم غيره للاختبار والمقابلة ممن يبذُّ "أكرم" علماً وقدراً، ويفوقه خِبرة وقدَماً، إلا أن الله إذا شاء أمراً هيأ له الأسباب، وهو غالب على أمره – سبحانه – بسبب ومن دون أسباب.

سافر الاثنان (المدير ومساعده)، وبقدر ما كان "أكرم" يقف جيداً على حجمه وقدره، وتواضع مكانته ومركزه، بقدر ما كان "حماسة"، تلك الشخصية القائدة الجادة المسؤولة، معتزاً بكادره، منشرحاً بإمكاناته، متفائلاً بقدراته.

وكان "أكرم" يعرف في "حماسة" هذا الاعتداد والاعتزاز مِن قَبْل السفر؛ لذا لم يستغرب من "حماسة" حين كان يُعرِّف بنفسه ويقول: "أنا كادر إداري بمصر، أنا مدير ورئيس قسم".

على أية حال ارتضى "أكرم" بواقعه كموظف مساعد مطيع، بضاعته الإخلاص، ورأسماله السمع والطاعة!

في وُدٍ وتناغم متبادلَيْن وصل الرفيقان، وظلا حبيبين حميمين، واستمرا يكمل أحدُهما صاحبَه، دون تجاوز أو تعدٍّ، بلا صدام أو تجنٍّ، كان العمل يضمهما، وغداء الظهيرة ووجبة العشاء تظلهما، بل لطاما صليَّا المكتوبات، واعتمرا معاً عِدَّة عمرات.

وكانا يخرجان كثيراً لشراء الهدايا، والمؤانسة والسَّمَر في المتنزهات.. إلى أن ظهر المدعو "دهشور".. وكان رجلاً طُوَالاً ضخْماً أبيضَ أكْرَشَ، شخص إن رأيته أكبرته، وإن تفرست هندامه أعزرته، ولو تأملت أناقته بجَّلته، وكان مِمَّن إن يَقُلْ تسمعْ لقوله.. لكن تُرى ما حقيقة "دهشور".. وقديساً كان أم إبليسَ؟

بدأت قصة "دهشور" بعد فضول مكشوف، وتقحم من مثله معروف، وذلك للتعرف على الصاحبيْن الرفيقيْن في شقة جامعة لموظفي الشركة.

كل موظف كان له فيها حجرة خاصّة إن قل العدد، وإلا تشارك اثنان في كل غرفة، وكان هناك حمَّام واحد كبير مشترك، وآخرُ صغير متواضع الإمكانات ليس عليه إقبال، إضافةً إلى مطبخ عام مشترك..

وبحسن ظن منهما كموظفيْن جديديْن قابل "الرفيقان" "دهشور" بالود والكرم، والحب والنِّعم..

ثم ما لبثت معالم شخصية "دهشور" أن تحددت وارتسمت، وعن سحابها انقشعت، فهو يريد وصاية على "الصاحبيْن" بَدْءاً من استخدام الحمَّام والغسالة، ومروراً بأجهزة المطبخ والثلاجة، وانتهاء بالخروج والدخول، والجلب والشراء..

ثم عَرَفَ الرفيقان بعد أيام أنه عامل تليفون، يُجيب ويُسجل، ويُنسق ويُرتب.. وهذا – دون شك – لا يَعيبه، لكن ما يَعيبه هو أن مقوده كان في بطنه، تسوقه في هُيامٍ مَعِدتُه، يُنفق

راتبه على فاخر المأكل والمشرب، ثم يمكث باقي الشهر متطفلاً كالنباتات النفعية المتسلقة، مُقتاتاً على غيره، ولكم أذل الحرصُ أعناقَ الرجال!

وإليكم هذا المشهد:

أكرم: يا "حماسة"، تعالَ انظر هيا بسرعة.. المربى بالثلاجة نَقَصَ أكثرها.

حماسة: هذا صحيح.. ما تركناها هكذا.. تُرى مَن أكلها؟

أكرم: والليمون والكمون قد اختفيا عن الأنظار والعيون!

دهشور (مرتبكاً وماكراً): نعم.. اليوم السبت.. يوم نظافة ومسح وعمل.. وربما جاء عامل كان جائعاً فأكل.

أكرم: بالهناء والشفاء.. لكن ما ضره لو كان أخبر أو طلب.

حماسة: حصل خير، فأولئك الناس رواتبهم منزورة، وحياتهم مقهورة.

وفي المساء بعد أن زار "ضيفٌ اسمه "رمزي" حماسةَ ودعا "حماسة" "أكرم" لِلُقياه والترحيب به معه.

حماسة (مسروراً بالضيف): أهلاً وسهلاً ومرحباً.. أُعرِّفُكَ "رمزي" بصنوي وصديقي "أكرم".

أكرم: مرحباً شيخ "رمزي" تالله لقد شرفتنا، أنعم بكم وأكرم.

ثم يطرق طارقٌ البابَ ولم يكن غير "دهشور":

حماسة (فاتحاً الباب): دهشور! خيرٌ نعم.. ترى ما الخبر؟

دهشور (مرتبكاً): لا أبداً مطلقاً.. إنما كنت فوق السطح وشيء من يدي وقع.

حماسة (مُضطراً عابساً) : تفضل بالدخول.. والتمس ما نَدَّ عنك وسقط؟

دهشور (مارّاً بالطعام والضيف): سلام عليكم سلامٌ سلامٌ يا شيخَنا.

الضيف: عليكم سلام الله ومرحباً.. تفضل أخانا بالجلوس هنا.

دهشور: (وقد أجال ناظريه في الطعام): شكراً فأنا مشغول بأمرٍ وعملٍ.

إنه الفضول.. عَرَفَ "دهشور" مَنْ الذي عند "حماسة"، وما أكلُهما وما المشربُ، وربما قبل أن يطرق الباب حاول استراق ما ينبسان به مِنْ تَكَلُّمٍ.

وفي لقطة أخرى، وفيه يظهر أحد سكان الشقة من زملاء العمل واسمه "إياد":

إياد (مُغضَباً): ما هذا ماذا جرى.. هل معنا أطفال هنا؟

حماسة: ما لك يا صاحبي.. ماذا دهاك ما أغضبك؟

إياد: زجاجات الشامبو خاصتي قد فُرّغت منه وبالماءِ عُبِّئت!

أكرم (متبسماً) هامساً في نفسه: آه.. فعلها ذاك الوغد العَيِّلُ.. بئس الجار والصاحب.

حماسة (وقد بادل أكرم النظر): ترى هل فعلها.. هل لهذا الحد قد وصل؟

إياد: ماذا تعنيان.. إلامَ ترميان؟ وقبلَكُما لم أكُ أشتكي!

أكرم: نعم يا صاحبي.. هي الوقيعة ومنطق فَرِّق تَسُد.

وصارح "حماسة" و"أكرم" زميلهما "إياد" برعونات "دهشور"، وجاسا معه تخوم شخصيته الحقودة الحاسدة، وحَكَيَا له شيئاً من حماقاته، وفضوله، وحرصه، وأفعاله الصبيانية.

وفي مشهدٍ آخرَ، عندما تعمَّد "دهشور" التأخُّر في الحمَّام وقت استعداد "حماسة" و"أكرم" في الصباح للعمل؛ فكّر "أكرم" في أن يترك الحمَّام الكبير لباقي الزملاء، ويستعمل الحمَّام الصغير الذي لا يقصده أحد.

واستمر "أكرم" في ذلك عدة أيام حتى اكتشف "دهشور" تغيير مسار "أكرم"، فإذا به خِلسة عَمَد لسِبَاكة الحمَّام فأفسدها، ومزَّق خراطيمها، وقد أدرك "أكرم" من كثرة المآسي أن "دهشور" هو الفاعل!

لم يكتفِ "دهشور" بصنائعه التي تشبه مكائد الضَّرات فيما بينهن، ولجأ للتحريش والتفريق بين الصاحبيْن بل بين "إياد" والرفيقيْن:

دهشور: إياد، ألست معي في أنهما (حماسة وأكرم) يُكثران الطهي والغسل والسَّرَف.

إياد: كيف.. كلنا عَزَبٌ.. وللغربة أحكامها. ونحن سواء في فواتير الغاز ونحوها.

دهشور: لا.. بل هما يُكثران ويُهدران الماء والغاز أكثر منا وأزيد.

إياد: إذن.. خبرني ماذا ترى وما العمل؟

دهشور: يتحمّلان ما يُكثران ويُهدران أكثر ممّا نتحمَّلُ.

إياد (مُلطِّفاً): سهل بسيط.. غاز.. وماء.. أو حتى نورٌ وكهرباء.

ومن دسائس "دهشور" ومكره وخبثه لإفساد "أكرم" على "حماسة" كان ذاك المشهد:

دهشور: يا "أكرم"، لِمَ يتقاضى "حماسة" أكثر منك وأزيد؟

أكرم: هي الأرزاق والأقدار.. ودرجات العمل.

دهشور: أراكما دوماً يداً بيدٍ في الشغل والنَّصَب.

أكرم: نعم.. وهل جئنا يا رجل إلا للجَهْد والتعب.

دهشور: فلِمَ دوماً له نصيب الأسد؟

أكرم: هو العقل والتدبير ومدير العمل، والغُنم بالغُرم يا سيدي.

ثم يتجه "دهشور" إلى "حماسة" آزّاً له على بُغْض "أكرم" قائلاً:

دهشور: حماسة.. لَكَمْ يشكو منكم "أكرم" ويتسخَّط؟

حماسة: عَلامَ.. وكلانا بالمودة ينعم؟

دهشور: يقول إنك مسافر دبي وتاركه.

حماسة: هذا خبرٌ بعدُ لم يتأكد.

دهشور: ويقول إنك مفارقه ولمصرَ تبغي تُعيده.

حماسة: لا أبداً مُطلقاً.. إنما جئنا هنا معاً.. ولمَّا ينتهِ بعدُ العمل.

دهشور: وقِصَّة أنك ستبدله بزميلٍ آخرَ هو أكفأُ.

حماسة: لا.. قد نُضطر فقط لزيادةٍ إن اتسع المشروع وافتقر العمل.

هكذا كان "دهشور" يجيء لـ "أكرم" من خلف "حماسة" يخبره بأن "حماسة" يُخطط للإطاحة به، ويفعل الفَعلة نفسها مع "حماسة" وهو في ذلك يشبه الشياطين الذين يسترقون السمع ويخلطون الكذب بالصدق؛ إرجافاً وتفريقاً، وإرصاداً للمتحابين والمتوادّين، والأخلاء والأصفياء.

منذ ذلك الحين.. قرر "أكرم" أن يجابه "دهشور" بتحليل شخصيته أمامه، وضرْب الأمثال مِن فَعلاته وتعريته أمام نفسه، فكان أسوأ يوم مرَّ على "دهشور" مُذْ ولدته أمه؛ حتى أيقن "دهشور" أن "أكرم" سَبَر غورَه، وخَبَر باطنَه، ووقف على مرضه وعلّته، فكان يتحاشاه لأن "أكرم" قد شد وطأته.

كما أن "دهشور" يعرف عن "أكرم" لاذعَ سُخريته، وسرعةَ بديهته وتهكُّمه، بل وسَطْوة بأسه إن أحدٌ به غَدَر. وهكذا صار "أكرم" هو الذي يطارد "دهشور" لا العكس..

وكان من ذلك أن "أكرم" إذا دخل المسجد ووجد "دهشور" ترك "أكرم" رحاب المسجد كلها ونوى الصلاة بالقرب من "دهشور" كأنه سيأتم به، فلا يملك "دهشور" إلا أن يتجوَّز في صلاته، ليبتعد من "أكرم" بُعد المشرقين عادّاً "أكرم" بالطبع بئس القرين تاركاً له المسجد بما رحب!

انتهت الرحلة وعاد الرفيقان صديقين حميمين كما سافرا، وقضى "أكرم" دَيْنَه.. وكم من هدايا جلب وكم من هدايا اشترى، بيد أن "أكرم" إلى الآن يتأمل ويفكر..

هل لـ "دهشور" نموذج بين الورَى؟ هل هناك منه نسخة مُكررة؟ أثَمَّ من ينشرح صدراً بإيقاد نارٍ مُدمِّرة، أكَائِنٌ من يستزله الشيطان بحسواتٍ، وحفنات، وريالاتٍ ويخلع عنه المَكْرُمَة.

إلى متى نبقى في الاغتراب مسْخرة، عيب عليكم بني مصرَ (المُكَرَّمة بالقرآن).. والمشرَّفة!

٢٥- فن الاحتيال

حين يكثر الفساد ويفتقر العباد، ويفشو الجهل ويزداد التملق والإملاق، وتتلاحق طفرات الأسعار وموجات الذل القاهرة.

حين يكون المشهد غابةً قويها لا يرحم، وضعيفها لا يفهم، وصغيرها ببغاء من دون وعي يُردد.

حين تُدنَّس النفوس ويربو تضخم الفلوس، حين يتحول الناس إلى ممثلين حتى على أنفسهم وذويهم، ويغيب صراط الشرع ويخبو ضوء العقل، ويصول الباطل ضارباً بأطنابه في كل حدب وصوب.

وحين يسطو الأمن السياسي ويتقهقر الأمن الاجتماعي.. لابد قبل احتقاب السرقات بالإكراه – أو معه – من تجارب في النصب والاحتيال وذلك بالعزف على وتري الغفلة والطمع.. وإلى قصصنا..

مشهد سينمائي قديم:

يجابهنا في بواكير العمل السينمائي المصري مشهد يبعث على انفطار القلب؛ رجل ضخم الجثة، قاسي القلب، شَهِيّ الاحتيال.

يُمسك بطفل صغير يضربه ضرباً مبرِّحاً والطفل يصرخ مستنجداً مستجيراً في استماتة، وهو تارةً ينجح في الإفلات ممن يضربه، وأخرى يقع بين براثن يديه اللتين لا ترحمان صراخه ولا تأبهان لعَذَابَاتِه.

ثم يتدخل أحد المارة عَجِلاً مشفقاً لإنقاذ الطفل من بأس الرجل.

وإن هي إلا لحظات وينجح الطفل في الإفلات من معذِّبه وبعد أن يختفي المعذِّب والمعذَّب معاً عن المشهد يكتشف المنقذ الهُمام لحظتها أن نجاح الطفل في الهروب والإفلات كان ثمنه فقدان حافظة نقوده!

بائع المقشار:

في العتبة حين كنا صبية صغاراً كانت أنظارنا تقع على بائع يعرض مقشاراً مُغلَّفاً للكوسة والبطاطس والباذنجان ونحوها.

كان الرجل يقشر هذه الخضراوات أمام نواظرنا بمهارة وسرعة خاطفة؛ ما حمَّسنا لشراء هدايا إعزاز وتقدير لأمهاتنا مما يعرضه.

وما إن نصل إلى بيوتاتنا تحدونا الفرحة، وتغمرنا السعادة، ويتملكنا إحساس بالفوز والاقتناص فنزجي الهدايا لأمهاتنا.. حتى نكتشف أننا اشترينا "مقشار" بطاطس مُقلَّداً يشبه في حجمه وشكله فقط ما كان بيد الرجل.

إلا أن خامته مختلفة، وأداءه متباين، وسرعان ما ينثني هذا "المقشار" في أيدينا بمجرد إعماله في أوهن الخضر وألينها!

هل سقط منك شيء أو وقع؟

وفي بولاق الدكرور كان يمر الأستاذ عزب، ذلك الشاب الصعيدي الشاعر الموهوب، والتعس المنكوب، ليوقفه أحدهم:

المتحايل: يا أستاذ، هل سقط منك شيء أو وقع؟

عزب (متحسساً جيوبه): لا.. لم أفقد شيئاً ولم أُضِع.

المتحايل: انظر بعدُ جيداً ولا داعي للعَجَل.

عزب (متأكداً مرة أخرى): قد نظرتُ وما أنا بالعَجِل.

المحتال: وجدتُ من المال مبلغاً وأظن أنه لك.

عزب (مخرجاً كل ما كان معه): يا سيدي هذا كل ما معي.

المحتال (خاطفاً ما أبداه عزب مولياً غير معقب):

أحقاً هذا كل ما معك؟!

قنص الهواتف والسلاسل والحقائب:

وفي الجيزة حيث كان يسير عُمَر بجوار الرصيف متحدثاً في هاتفه منهمكاً في الحوار مندمجاً.

وكان هاتفه متعدد الوظائف غالي الثمن، فإذا برجلين متربصين امتطيا "موتوسيكل" فائق السرعة والقُدَر.

أحدهما ممسكاً بالمقود ينتظر أمارة أو إشارة من رديفه، والآخر مُحلِّقاً بعيني صقر رامقاً هل الموبايل يستدعي المغامرة والخطر.

وحين تأكد الصقر من قيمة الموبايل وبأنه حقيق أن يكون في جيبه لا في يدي عُمَر، نكز الرديف قائده أنْ صيدٌ ثمين لاح في الأفق، وكان كل منهما يفهم عمله جيداً.

وفي تناغم لم يُرَ مثلُه إلا في فرقتي (ثُومة وحُلُم) انطلق القائد كالرعد والتقط الرديف الهاتف التقاط النسر للقطا بعد أن دار بينهما هذا الحوار:

القائد: أنا جاهزٌ إن أصبتَ الهدف.

الرديف: دعنا أولاً منه نقترب.

القائد: تواً أُدنيك منه وتجتذب.

الرديف: أبْشِر بصيد لاح بالأفق.

القائد: إذنْ أَنْطَلِقُ مُدوياً دون تردد.

الرديف: يا له من هاتف ينبغي أن يكون معي!

موتوسيكل الشيخ مسعود:

وفي زرقاء دمياط كان الشيخ مسعود يقود الموتوسيكل مَلَكاً مرتلاً ما تيسر من القرآن الكريم، ثم بلغ غايته فأوقف مركبته، وترجَّل عنها.

وكان محتالٌ بانتظاره في شوق عارم، واستشراف غامر، وما إن ترجَّل الشيخ عن دابته إلا بادره المحتال بكل ما أوتي من ثقة:

المحتال: سلام الله ورحمته عليكم يا سيدي.

الشيخ مسعود: وعليكم سلام الله والعافية.

المحتال: ما هكذا تُوقف الدوابُّ يا شيخَنا!

الشيخ مسعود (متعجباً): وكيف إذن إيقافها؟!

المحتال: لو تسمحون.. رأيتم مني العَجَب.

الشيخ مسعود: لا ضير تلك المفاتيح وذاك المُشَغِّل.

المحتال (بعد تمكنه من المركبة):

هكذا يكون مفزعي ومهربي.

وداعاً الآن يا سيدي!

٢٦- حلم في الميكروباص

في أحد المواقف ببلد حُرٍّ عامر، كان "سلطان" ينادي في المارَّة؛ كي يُكمل عدد ركاب السيارة، وبصوت مُزعج بعد عَطْسٍ وبَصْقٍ وسُعال، تخللته أنَّات تشي بمعاقرة المخدرات، وإدمان على محظور المشروبات.

حاول "سلطان" أن يرفع عَقِيرَته بالصوْت، مُصطنعاً التلطف في دعوته الزبائن، متوجساً من زملائه تجاوزه في التحميل والفوْت، وما إن اكتمل عدد الركاب وأغلق الأبواب، حتى عوى "سلطان" كذئب تمكن بخبث من حَمَلٍ وديع: الأجرة زادت من أمس والكل شاهد وسامع، وأول محطة لنا الجامع، ممنوع الفُول السوداني وقزقزة اللب، ممنوع إلقاء مناديل وبكاء طفلٍ، أو جَلَبَةٍ وصياحٍ وصَخَب.

انطلق "سلطان" بعد أن أشعل سيجارة، وأعلى صوت مُسجِّل السيارة، وأخذ يستمع إلى أغنية هي كالخَدِيج (السِّقْط) الذي لا معالمَ له، وبقطع النظر عن حكم الأغاني في الدين والشرع، فهذا النوع من الأغاني أراه يحرم فنيّاً قبل بحث حكمه شرعيّاً، فلا كلمات هادفة، ولا جُمَل منسقة مهذبة، ولا معاني مُستملحة، ولا موسيقى مُطربة ناعمة، ولا حتى صوت مقبول ينمُّ عن صوت إنسان فضلاً عن مُطرب أو فنان!

وكان ضِمْنَ الرُّكاب الموظف "أحمد" ذلكم الرجل الأربعيني المُعَنَّى بالغلاء الذي يصل ليله عملاً بالنهار، ولا وقت لديه لينام اللهم إلا في مَرْكبة خاصّة أو نقل عام، فبادر بدفع الأجرة قبل أن تفجؤه سَطْوةٌ من نُعاس، أو تقهره سِنَةٌ من نوم.

سلطان: هيَّا اجمعوا الأجرة وراجعوا الحسابات.. وأرسلوها توّاً يا حضرات.

أحد الزبائن: أريد النزول قبل محطة الجامع، فلا تُغيِّر طريقك، والتزم بخط سيرك.

سلطان: كلامي كان عربيّاً، لا وقوف قبل الجامع، ولا شأن لي بالنائم وغير السامع.

راكب ثانٍ: من فضلك اخفض الصوت، معي مكالمة عن حادثةٍ وموْت.

سلطان: صوت التسجيل لا ينخفض، أتمم بعد نزولك المكالمة، واذهب لجنازةٍ شئت أو مشرحة.

راكب ثالث: سِر على مَهَل لا داعيَ لتهور وعَجَل، وفي المطبات برفق وراحة، فأنا حديث عهد بجراحة.

سلطان (ساخراً): هذه إمكانات السيارة، التمس ركوب "أُوبَر"، أو استَأْجِر إن شئت "هَمَر".

راكب رابع: أنزل هنا الآن.. على أي جانبٍ.. في أي مكان.

سلطان (متذمِّراً): من أراد النزول يُخبر قبلها السائق.. فقد كنا وقوفاً منذ دقائق.

راكب خامس مناجياً نفسه: يا رب هل هذا سائق عربة وقائد.. أم زعيم مستبد بنا معاند؟

سلطان (متهكماً): أسمع أحدكم يتمتم بكلمات ودعوات.. فهل من اعتراضات أو توجيهات؟

راكب سادس: الباقي لو سمحت.. فقد أوشكت على النزول، واقتربتْ محطةُ الوصول.

سلطان: ليس معي فكَّة (صَرْف).. وعليك قبل الركوب تقدير حساباتك، وفَكّ جامد أموالك.

سلطان (وقد تلقَّى مكالمة): نعم يا بِرَنْس، آه.. كَسْرُ ماسورةٍ ووقفُ حال؛ إذن سأغير الوجهة وأُعدِّل المسار.

الرُّكاب (في صوتٍ واحد): إلى أين الوجهة وعلامَ؟.. نريد أن نصل بالسلامة.. لا تُغيِّر خارطة الطريق ولنخضع للقدر والنصيب.

سلطان: طريقي أعرفه.. وأنا من يحدده، وسأسير معاكساً ومَن يُرد النزول الآن في داهيةٍ نَزَل.

الراكب الخامس (مناجياً ربه): يا رب زاد البلاء وطم، وكثر الغلاء وعم، عليك بالطُّغاة الحقير منهم والمهم.

وفي كَمينٍ خلف الشَّجر، بادر اثنان أن قِفْ يا لُكَع وابنَ لُكَع.. واركِن يَمْنَةً يا حُثالةَ البَشَر.

ضابط المرور: أوراقك.. البطاقة والرُّخص، أو جواز السفر.

سلطان: لِمَ يا باشا إنما قَصَدْتُ الخير.. والبعد عن الخطر.

ضابط المرور: خالفتَ الطريق، وجاوزتَ القانون، يا عديم النظر.

سلطان: معي مريض جريح، وآخر يبغي إنجاز تصريح؛ لأجلهما عكستُ الطريق ولم يحدُث ضرر.

ضابط المرور: أوراقك.. لا تُجادل يا وَبَاءُ يا جَرَب، الحبس والغرامة للبلطجة وسوء الأدب.

سلطان (خافضاً صوته وغامزاً بإحدى عينيه): يا باشا.. لا بركةَ لي سواك ولا أهمّ.. مُرني فهذا كل ما كسبت اليوم.

ضابط المرور (متظاهراً بالتعفف): هذا لزملائي المرابطين في العمل، وللقانون رسمٌ، وحدٌّ، وأَجَل.

سلطان (مخاطباً الرُّكاب): بأمر الباشا هيَّا للنزول، لا سيرَ ولا وصول.. وحذارِ من سبٍّ وشتمٍ أو ضَجَر.

الركاب: حسبنا الله في سائق باع الضمير وخان الوطن، وفيمَنْ قَبَضَ رخيص الثَّمَن.

راكب (أكثر حماساً وشجاعة): لنا الله في ميكروباص يسير دون ضبْطٍ، ولا ربْطٍ، ولا غايةٍ، ولا هدف.

راكب (أكثر فهماً وأهمس صوتاً): حسبنا الله في خفيرٍ ومدير، وصغيرٍ وكبير، وكل قائدٍ تَوَانَى في العمل.

وبعد الوصول والنزول.. انصرف الركاب جميعهم إلى مقاصدهم ووجُهاتهم، وظل راكب واحد (الموظف أحمد) لم ينزل، أيقظه "سلطان" بعنف وانتهره قائلاً:

سلطان: قم يا بيه نزل الجميع وأنت وَسْنَانُ لم تَزَلْ.

أحمد: أَبَلَغَ الميكروباص غايته وبالسلامة وَصَلْ؟

سلطان: أجل.. كلُّ هذا وأنت نَائِمٌ في العَسَلْ!

٢٧- غرام في المترو

كان "إمام" الموظف الثلاثيني بإحدى شركات القطاع الخاص ذا خيال خِصْب جامح، بين حناياه قلب شاعر، وفؤاد كاتب وناثر.

كم كان خفيف الظل، عذْب الروح، أخَّاذ الطلعة، وضيء المُحيَّا، قَيْد القلوب والنواظر، لا يُملُّ حديثُه، ولا يَزْهَد فيه جليسُه.

إلا أنه كان يُسخِّر إمكاناته هذه كلها، وقدراته تلك جميعها لخدمة مآرب غامضة غريبة، ومسارب نفسية عجيبة، حيث كان يخشى العين، ويفر من الحسد.

وكان يتقي ذلك كله بالمداراة والتَّعْمية، والتَّقيَّة والتورية، وأحياناً يزايله الصدق ويصرعه الكذب؛ فلكل تأخير عن العمل قصةٌ وحكاية، ولكل غيابٍ عارضٍ مأساةٌ ورواية، ولكل ملبَسٍ جديدٍ تبريرٌ وشِكاية.

عَشِق "إمام" الدنيا عشق الأطفال للمتع والمرح، وحُبَّ الفتيات للعرْس والفرَح؛ وهو في عشقه كان المنتقي الخبير، والمقتنص القدير.

فمنذ نعومة أظفاره كان يبحث طويلاً عن عمل خفيف عبؤه، قصير وقته، وفير دَرُّه، ولطالما كان موفَّقاً في هذا.

بل هو مع ذلك يُمعن في استخدام الترخُّص والزوغان، والتنصل من النقد إن اضطُّر للتغيُّب عن المكان، متذرِّعاً في ذلك بما أُوتي من جميل اعتذار، وبديع إقناع وإبهار؛ وذلك من خلال إسرافٍ في تورية ظنها تنجيه، وإفراط تعميةٍ حسِبها تحميه، وتشبُّثٍ بأهدابِ كَذِبٍ كي يقيه.

وكان كثيراً ما يدور مثل هذا الحديث بينه وبين زملاء العمل:

– ماذا تأكل يا "إمام"؟

بعد أن يخبئ "إمام" ما يأكله من "جبن فلمنك وزيتون يوناني" يقول مُوريّاً:

– وماذا غيرهما، ليس هناك أرخص منهما، ويعني بذلك الفول والطعمية، وإن كانا يُسببان تورماً في قدمي.. ثم يثَّاقَل "إمام" بقدمه كأنه أُصيب توّاً بنوبة نِقْرِس حادّة.

– ما أروع أناقتك اليوم.. أجديد هذا القميص؟

– اضطررت لشرائه، وكَيِّه وارتدائه؛ وذلك تخليصاً لحق قديم، عند رجل مراوغ لئيم.

– رائع هذ الحذاء يا "إمام".. يبدو أنه غالي الثمن!

– نعم.. اقترضت مالاً وابْتَعْتُه، بعد أن أمرني الطبيب بنوع خاصٍّ من الأحذية اشتريته؛ لعلّةٍ في رِجْلي، وآفة في قَدَمي.

– هل ستشاركنا "جمعية" مدتها عام؟

– كيف.. ومن أين؟ أبي يُنهي أوراق المعاش، وأمي طريحة الفراش، وباقي إخوتي يدرسون، وعلى جزءٍ من راتبي يُعوِّلون.

هكذا.. انسكبت شخصية "إمام" الانتقائية على أقطار حياته كلها، وانسحبت حتى على اختيار عروسٍ، والتماس خطيبة.

فكم من بيتٍ طرق، وكم من دارٍ طلب، وكم من مَهْيَعٍ سلك، بل قُل: كم من فؤادٍ به شُغِل، وكم من نفسٍ به تعلَّقت، وكم من فتاة به تولَّهت.

ولا غَرْو فهو إن نظر كان الساحر، وإن همس كان الشاعر، وإن تحدث كان الخطيب البارع الآسر.. لكنه إن وَعَدَ كان سحابة صيف عابرة، وسراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماءً!

وفي بيت العروس الأخيرة دار هذا الحديث:

– شرّفتنا يا أستاذ "إمام"، وأسعدتنا بجميل حديثك، وشَيِّق حوارك.

– الشرف لي يا عمَّاه، بل أنا الأسعد بفيض ودك، وواسع كرمك.

– في انتظار ردكم يا بُني، بعد الاستشارة والاستخارة، وإعادة الفكر وإنعام البصر.

– أفيكم أستشير، وبإزائكم أستخير.. أو أعاود النظر؟!

– حقُّك يا بُني كما هو حقُّنا.. فلا تكن فَطِيرَ الرأي والتمس من الله العون والرَّشَد.

– هو ذاك يا عماه، فالله نعم المقصود وهو المُرجَّى والمُلْتَمَس.

ينصرف "إمام".. وبعد خطوات من البيت، يتصل بوسيط ليُنسق موعداً لرؤية شرعية جديدة؛ عسى أن تكون العروس أكثر ملاحة، وأنضر صباحة، وأبدع رشاقة، وأصغر سناً، وأكثر حفظاً، وأتقن رواية، وأعمق دراية.

ولعلها تكون ممن حظين بنصيب من الصوت الندي، وقدر من المرأى البهي، وكِفْل من الهمس الحالم الشجي، مُمنيّاً نفسه أن تكون واسعة الثقافة، على قدر من العلم والأدب والاطلاع والظَّرافة.

تأخر "إمام" اليوم عن عمله، وسار بخطوات حثيثة يسابق بها الزمن، ويدفع بها عن نفسه غَائِلة الثمن، لا سيما وقد أنذره المدير، بعد كثير غيابٍ منه وتأخير، بوشيك الرفت والاستغناء، وقرب الفصل والإنهاء.. وفجأة.. في المترو اتصل به المدير:

المدير: أين أنت يا "إمام"؟

إمام: من الشركة اقتربت.

المدير: ولِمَ التأخير؟

إمام: مشكلٌ كبير.. سأقصُّه وأحكيه.. حين نلتقي بالعمل.

المدير: الشركة في "شبرا الخيمة".. كم أمامك من دقائق لتصل؟

إمام: دقائق معدودات، ولحظات منزورات، وأمتطي المصعد.. أو أرتقي الدَّرَج.

وبعد مُضي أكثر من ثُلُث ساعة، ومرور عشْر محطات:

المدير: إمام.. هل وصلت؟ أنا اليوم تعطلت.. سيارتي اليوم فاجأتني بالعَطَب.

إمام: لا تقلق مديري، فأنا بالمكتب أباشر العمل.

وتأتي محطة الوصول، وعلى باب عربة المترو يتزاحم رجلان للإسراع والنزول، كان أحدهما "إمام" والآخر المدير!

فكان هذا الحوار:

المدير: تالله إنك لفي ضلالك القديم من الكذب والمَيْن!

إمام: لا سيدي.. ليس الأمر كما تظن.. إنما هي الأقدار والمِحَن.

المدير: أنت اليوم مفصول، وراتبك محسوم مخصوم، هذا جَنَى الإهمال والزلل، وعُقبى التقصير والزَّيْغ والكسل.

إمام: حلمك مديري.. هناك ما لا تعرفه، ولمَّا تعلمه.

المدير: صهٍصهٍ.. انتهى الحوار، وانقطع الكَلِم.

لم يتوجه مسرعاً "إمام" إلى الشركة ليُنهي إجراءات إعفائه، بل قصد شركتين أخريْن كان قد تقدَّم إليهما، واجتاز الاختبارات فيهما، ذهبا ليفاضل بينهما إثر اتصال منهما أن تفضل بتسلُّم العمل.

اعتاد "إمام" هذا البَيْن وتلك المفارقة من الشركات التي استخدمته، والمؤسسات التي استعملته، بل للأسف صنع ذلك هو مع الصحبة والصداقة التي أظلَّته وفي رحابها ضمته.

فليت شعري الآن.. بعد أن ودَّع "إمام" شرخ الشباب، وجاوز الكهولة، ووَخَطَه الشيب، ولامس الكِبَر، هل يرجع عن سادر هُيامه أو تراه عن غرامه الدائم يرعوي؟!

٢٨- مولانا الشيخ جمال

مع مشرق كل صباح كانت الشمس بأعالي صعيد مصر تجلد بسياطها أديم قرية "جمال"، ذلك الصبي أسمر البَشَرَة، مكتنز اللحم، مفتول البنية، عابس الأسارير، الجانح للدعة في غلظة، المائل للكسل في فظاظة.

ومع تثاؤبه حين يستيقظ يبدأ يومه متثاقلاً بالذهاب إلى المدرسة، بعد أن تمكن بخُبث من التخلُّف عن كُتَّاب القرية، مرة بفلاحة الأرض، وأخرى باصطياد السمك، وثالثة بالهرولة خلف عربات القرية.

لم يَطُل نَفَس "جمال" في التعليم، فقنع بعد حصوله على الشهادة الإعدادية بدخول المدرسة الفنية الصناعية ليُنهي دراسته للدبلوم بعد ثلاث سنوات قضاها متململاً، يحسب شهورها، ويعد أيامها.

ثم ما لَبِث "جمال" أن جابهته أسرته بصرامة، وواجهته بحدَّة، بضرورة سعيه الجاد للعمل ومساعدة الأسرة في نفقاتها، فكَّر مليّاً ماذا يعمل؟ ثم ارتأى أن يكون قائد سيارة، خاصة أنه كان يعشق في صباه ملاحقة السيارات متشبثاً بمؤخراتها.

وكان يتوق ليجرب بنفسه اعتداداً واعتزازاً وتسلطاً راق له من بعض السائقين الذين عمل معهم مساعداً لفترة؛ ثم ما لبث أن تمكن الفتى من قيادة السيارات، وكم كان يرنو لأن يُقال له يا أسطى "جمال" بعد أن أخفق في سماع كلمة أستاذ "جمال".

مع شظف العيش في القرية، فكَّر "جمال"، بعد أن بلغ أشده واستوى على عوده، في السفر مثله مثل كثير من أقرانه بالقرية، ادَّخر مبلغاً من المال من عمله، وباركه والده بمبلغ آخر، وأتحفته والدته بعطية؛ ما مكَّنه من السفر إلى السعودية.

وهناك عاش "جمال" سنوات ونعم بالحرية الدينية فيها، فأطلق لحيته، ورطن بلهجة السعوديين، حتى أن الرائي والسامع له ليحسبه مواطناً لا وافداً.

وبعد انقطاع حبل رزقه بالمملكة عاد "جمال" بعد أن أوشك على بلوغ الأربعين من عمره إلى مصر، لكنه لم يُطق الحياة في القرية فلفظها ونزح إلى القاهرة.

بعد حياته في أدغال الصعيد، ألقت به عصا التسيار، واستقر به المقام بمنطقة "عين شمس"؛ وذلك منذ عشر سنوات تقريباً، ولما كان موفور اللحية، قوي البنية، يرتدي دوماً جلباباً وطاقية.

سمع "جمال" الناس تناديه بـ الشيخ "جمال"؛ فأحسَّ بنشوة تسري في عروقه، ومتعة تدب في أوصاله، فاتجه إلى المسجد، ينضم إلى حلقة تعليم القرآن الكريم به.

وبعد فترة غير كافية لارتقائه إلى كوكبة الماهرين بالقرآن، بدأ "جمال" يتصدر المجالس، يعشق الأمر بالمعروف وإن كان بغير المعروف، ويخلب لُبَّه تغيير المنكر وإن كان بالمنكر. وتملَّك عِشقُ الظُّهور من فؤاده، وتيَّم شغاف سويدائه كَلَفاً وصَبَابة، فكان يتجاهل صاحبه "أكرم" الذي سبقه بسنوات إلى تعليم الناس أحكام القرآن في رفق ولين، وحلم ويقين.

وشرع "جمال" يصوِّب للقراء متجاهلاً وجود "أكرم" رائد المقرأة وأبرز مؤسسيها، ثم تراه يهرع إلى النصح والإرشاد دون حاجة أو داعٍ، ويتدخل في مسار المقرأة وتوجيهها.

امتص "أكرم" كثيراً من غرائب "جمال" ورعوناته، ومرَّر له كثيراً من فضوله وتقحماته، ونصحه إن أراد أن يكون داعية ناجحاً بأن يتسلح بالعلم وأن يكون هاشّاً باشّاً، وافر البسمات، طَلْق القَسَمات، وأن لا يُكثر على الناس من الانتقادات، وأن يتلطف متوددا بحيث يؤلف القلوب والأرواح قبل أن يكلف النفوس والذوات.

وحين لمس "أكرم" في "جمال" حب الإمامة، وعِشْق الصدارة والزعامة، أرشده إلى الاقتصاد في الصلاة إن كان إماماً، وعدم الجنوح للإطالة؛ فالناس منهم المريض، والضعيف، وذو الحاجة.

عبثاً حاول "أكرم" إقناع "جمال" بالترفق والتودد؛ إذ كان "جمال" يرى أن الترفق والتودد إنما جُعلا لغير المسلمين تأليفاً لقلوبهم، واستمالة لأفئدتهم، ودغدغة لعواطفهم.

أما الحال مع المسلمين فلا بد أن تأخذ مسار الجد، وتحذو حذو القوّة والشد؛ لذا كنتَ تراه يُعنِّف من تفوته الجماعة ولو لعذر، ويوبخ من يجتزئ بصلاة ركعتي سنة تاركاً اثنتين ولو كان مرهقاً مُتعباً.

وكان يؤنِّب من يُسبل ثيابه ولو عن غير سَرَف ولا مَخِيلة، وينتهر من ينسى سواكه وإن كان قد نظَّف أسنانه بالفرشاة والمعجون.

ثم تعرَّض "جمال"، بعد الإمامة التي طالما حرص عليها كأنه عدَّ صلواته هدراً وسُدى إن كان مأموماً، تعرض للدروس والخطابة ضارباً بنصائح صاحبه عُرض الحائط، فكان حين يُمسك بالمِصْدَح "الميكرفون" لا يكاد يتركه إلا إذا نُبِّه للإطالة، أو انفضّ عنه أكثر الحضور.

وكذا الحال في خطب الجُمَع، بل بدا له أن يعقد حلقات لتعليم الأطفال القرآن الكريم، فكنتَ لا تراه أقل عنفاً، ولا أدنى قسوة، ولا أخفض ضراوة، ولا أهدأ نفساً، ولا أسكن مِرَاساً، كأنه يعشق الصد، ويكره الجذب، يتغيا بذلك التنفير لا التبشير، والتعسير لا التيسير!

ومع شكاوى الناس المتلاحقة من إطالته في الصلاة، واجهه "أكرم" بأن الأمر زاد عن حده، وأن طريقته غير مجدية، وصادَّة وصادمة، فقال له: إنه يواصل حفظ القرآن الكريم

ولا بد من تثبيت الحفظ بالصلوات، فقال له صاحبه وهو يحاوره نعم ثبِّته ولكن بالسُّنن والنوافل.

فقال "جمال": إن الناس يقفون طويلاً في وسائل المواصلات، وفي طوابير الخبز ونحوها، ويمضون الساعات ذوات العدد على المقاهي وأمام شاشات التلفاز، فما بالهم يتململون خلفي؟

قال له "أكرم": "فَذكر إنمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ"، "لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ".. وأن مردهم جميعاً إلى الله وهو محاسبهم، ثم ترك "أكرم" صاحبه بعد أن تيقن ألا فائدة من حوار أو نقاش أو جدل معه وقد تضخمت ذاته، وجمد فكره، وتبلد عقله، وسمج منطقه.

وذات مرة بالمسجد بعد أن أذَّن "جمال" بصلاة الفجر وصلَّى رغيبتي الصبح، استبدَّت به سَطْوة من نُعاس، ثم استيقظ بعد مرور أكثر من نصف ساعة من أذانه، فوجد المسجد خالياً من الرواد، بادر مسرعاً لإقامة الصلاة والتفت خلفه بعد الإقامة فلم يجد أحداً قد دخل المسجد.

استقبل "جمال" المحراب وقبل أن يُحرم بالصلاة تذكَّر آخر كلمات همس بها "أكرم" صاحبه في ضميره، وألقى بها في رُوعِه: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"، "إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ"، "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ".

ثم استعاذ "جمال" بالله من الشيطان الرجيم، ونفث عن يساره ثلاثاً، وقال لنفسه في صَلَف وغُرور: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ"، الحق

لا يُعرف بالرجال.. اعْرِف الحق تعرف أهله.. أنت على الحق ولو كنتَ وحدك.. ثم رفع يديه وصدع بتكبيرة الإحرام!

٢٩- أذان المنشاوي

كانت تجاورني.. سحابة عمل تظللنا.. سويعات تجمعنا.. ولما كانتْ قطبَ قِسْمها صارتْ محوراً لمرؤوسيها، يتجاذبون معها الحوارات، تمنحهم بود التوجيهات والانتقادات.

كثيراً ما أزعجني جدالهم ومناقشاتهم في العمل وغيره، إلا أنني كنت لا أزيد عن أن أمتعض متصبراً، أقول: دقائق وينتهون، وإلى مهامهم سيعودون..

كان فريقها حقاً متآزر اللبنات، متسق الأفكار والمنطلقات، متكاملَ العمل والإنتاج، يَصدُر عن طبقة من المجتمع انتعشت مادياً، وإن افتقر بعضهم روحياً.

أفرزتهم مدارس اللغات، وكليات الألسن والترجمات، وأسبغت عليهم من ظلالها ثمار التميز والاستعلاء، ووهبتهم جراءة في التعبير، وأكسبتهم إسرافاً في حب الذات.

كنت من جانبي طَلْقَ السلام، قليل الكلام، محافظاً على علاقة الزمالة من أدب واحترام.

وحين يقصدني زميل بحوار أو نقاش أنهض بعيداً عن المكان؛ كي لا أشوِّش على جارتي، أو أكون سبباً في انقطاع تركيزها، وتسلسل أفكارها.

بل كنت أخفض صوت هاتفي باكورة كل صباح حتى أكون حضارياً فلا ضجيج ولا جَلَبة..

على حين كانت الهواتف من حولي تُوقظ النومى، وتؤرق الوسنى، وتطرد الكرى إلى غير عودة!

وذات يوم.. نسيت أن أخفض صوت هاتفي، وكان أذان الظهر قد حان، فإذا بصوت الشيخ المنشاوي يجلِّل المكان، ويصدح في خشوع لله وخضوع.

وما إن صَدَعتْ أولى تكبيراته إلا بادرتني جارتي بوجه عابس كأنه أوذي بوشاية، أو سِيمَ غبناً ونِكَاية: أن اخْفض الصوت.

نظرت إليها في عجب وبشتها بأسارير وجهي كل ما كان بمقدوري من دهشةٍ وأسفٍ وضيق، وأنا من تحمَّل صخبها وفريقها لسنتين انسلختا، وذلك في الوقت الذي كانت أصابعي قد أسكتت –في أسى– رائع صوت المنشاوي.

ولم تمر سوى أيام قلائل حتى ترحَّلتُ عن مكاني بعد أن تلمَّحت مكاناً شاغراً.. وكم سعدتُ أن كان المكان بجوار عمودٍ جمادٍ لا غَرْوَ أننا سنُرجِّع معاً أذان رب العباد!

٣٠- جوهر الدين

أثناء الفسحة المدرسية، وفي استراحة غرفة المعلمين، جمع المعلم صالح وزملاءه من المعلمين نقاشٌ حول الجَوْهر والعَرَض في فَهْم الدِّين.

المعلم صالح: ينبغي أن نلاحظ أن حديثنا اليوم حديث جوهري وليس حديثاً جزئياً، فاليوم نتحاور عن العلاقة بين البدن والروح، والمظهر والمخبر، والوسائل والغايات.

المعلم نبيل: كأنك تُشير يا صالح إلى القضايا التي لها ظاهر وباطن، أو عَرَض وجَوْهر، أو شكل ومضمون.

المعلم سعيد: إن كان هذا الفَهْم صحيحاً، فالعبادة مثل الصلاة وسيلةٌ وعملٌ صالحٌ لتحصيل غاية القرب والأنس والاتصال بالله؛ ومن ثم الاستقامة على الطريق.

يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ والذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٢١.]

المعلمة أسماء: والصوم كذلك هو طريق لتحصيل البر والتقوى، يقول تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣.]

المعلم صالح: حقاً.. العبادات كلها أدوات وطرائق وسبل مرادة، لكنها لا تراد لذاتها فقط، فرغم أن العبادات منها المفروض والمندوب المستحسن إلا أنها تُؤدَّى لغاية أسمى وأبعد.

وليست هذه الغايات محصورة في حصول الأجر والمثوبة فحسب، وإنما في انسكاب هذه العبادات كذلك على سلوكيات الإنسان في حياته سكناتٍ وحركات، أفعالاً وسلوكيات، عزائمَ وقرارات.

المعلم نبيل: كيف يختبر المرء حقيقة إيمانه.. وكيف يثبت لديه برهان صدق الإيمان؟

المعلم صالح: باختصار، جوهر الدين يتبرهن لدى أصحاب التدين واضحاً في الخلوات لا في الجلوات، وعند الابتلاءات بالفتن، والمضرات، والمسرات.

المعلم سعيد: يقولون: بالقِشْر يُحفظ اللُّب.. فما العلاقة بين المظهر والجوهر؟

المعلم صالح: كلاهما يُطلب ويُبتغى، لكنَّ جوهر الدين ليس يَضَحُ ناصعاً جلياً في الطقوس والأشكال والأزياء، بقدر ما يلوح مشرقاً عند التعرُّض للإغراء بفتن المال، والجَمال، والمناصب، والشهرة.. إلخ.

المعلمة أسماء: هل فهم الصحابة – رضي الله عنهم – العلاقة بين الاعتقاد والقول والعمل؟

نعم فهموها بأعلى درجات الفهم وطبقوها مع تفاوت إنساني وقدراتي طبيعي فيما بينهم؛ لذلك لم يكن عجيباً أن يفوق أبوبكر الصديق – رضي الله عنه – الصحابة رغم أنه لم يكن أعلمَهم ولا أقرأَهم، إلا أنه اهتم بالسلوك والعمل المتعدي خيره للغير بعد تحقيق الإيمان.

فقد فَهِمَ أبوبكر أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وأن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه إخلاص العمل، بعيداً عن الرياء ومغازلة أعين الناس.

المعلم نبيل: بالمثال يتضح المقال، إن تلميذاً أثَّرت فيه عبادته، ثم أُتيح له أثناء تأدية امتحاناته طريقٌ ممهد للغش يُحسِّن به نتيجته ويرفع به درجته، إلا أنه يرفض هذا الطريق ولا يلجه لَتلميذٌ أثمرت عبادته وأينع إيمانه براً وتقوى وإحساناً.

فما أروع هذا التلميذ حين تذكَّر أن الله يحب الصادقين ولا يحب الخائنين المخادعين، وحين امتثل بالامتناع عن الغش لقول النبي – صلى الله عليه وسلم" – من غش فليس منا" (سنن الترمذي وابن ماجه.)

المعلم سعيد: نعم.. حكى لي صديقٌ أنه تعرَّض في العمل لإغراء مادي كبير، شريطة أن يُقدم تقريراً مائعاً؛ يتيح لشركةٍ ما أن تستحوذ على مشروع بعَرْضٍ مالي زهيد لا يتناسب مع حجم المشروع المطروح وضخامته، فضلاً عن تسهيلات يسمح بمنحها لهذه الشركة لِتُمدد بها زمن تنفيذ المشروع، مع تقديم تسهيلات للشركة عند المعاينة والتسلُّم.

إلا أن صديقي رفض على الفور إعداد هذا التقرير، وطالب بإجراء مناقصة عامة عادلة، تتقدم إليها الشركات المنافسة بأعلى العروض وأقل المُدد؛ لإخراج المشروع بكيفيات فنية عالية الجودة لا تلاعب فيها ولا غموض ولا وسَاطة.

المعلمة أسماء: لعل من أمثلة ذلك أيضاً ما فعلته زميلة لنا قبل عامين، حيث كانت تُعطي مجموعة من التلاميذ درساً خصوصياً، فكانت أثناء الشرح في حصة الفصل تتفانى وتخلص في الشرح كأنها في الدرس الخاص تماماً.

فإذا ما حاول أحد من تلاميذ مجموعة الدرس الخصوصي أن يشغب أو يضيع وقت الحصة أوقفته عند حده وعاقبته، كما كانت تسمح – في عدل ومساواة – بمشاركة جميع التلاميذ خلال الحصة المدرسية في الحوار والإجابة.

وعندما زارها في الفصل والد أحد هؤلاء التلاميذ الذين كانوا يحاولون الشغب في الحصة حاملاً معه هدية لها، وطلب من المعلمة أن ترفع درجة ابنه في الاختبار الأخير.

سمعنا المعلمة منفعلة – كما لم تنفعل من قَبْل – رافضة الهدية وطلب ولي الأمر بقوة، قائلةً: درجة الامتحان صحيحة، وهذا المستوى الحقيقي لابنك، اجتهد معه في البيت ليلحق بأقرانه!

المعلم صالح: صدق الله العظيم القائل: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: ١٢٨.]

المعلم نبيل: وصدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – القائل: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" متفق عليه، رواه البخاري (٢/١٤٤ – ١٧٤) ومسلم برقم ١٧١٢.

٣١- زوج اثنتين

في المطرية..

مكث "شريف" (فني الغسالات)، وزوجته "نادية" مدة عشر سنوات ينتظران خلالها أن يرزقا بنعمة الولد، لكن شاء الله ألا تنجب "نادية" رغم استفراغ الوسع لدى الأطباء، وذلك بعد أن لم تغنِ الوصفات البلدية عنهما شيئاً.

كان "شريف" رقيقاً وفيّاً لزوجته طوال هذه المدة، لم يحاول مرة أن يجرحها أو يؤذي مشاعرها، حتى بعد أن أثبتت الفحوصات الطبية، وأكد أكثر من طبيب أن مشكلة عدم الإنجاب لا تتعلق بـ "شريف" إنما تخص زوجته "نادية."

بادلت "نادية" زوجها "شريف" حباً بحب ووفاءً بوفاء، ورأت أنه من منطلق المودة والرحمة والحب والعرفان أن تطلب إلى "شريف" أن يتزوج بغيرها، فهي تعلم أنه يشتهي أن يكون أباً كما أنها تتمنى أن تصبح في يوم من الأيام أماً.

تحت إلحاح "نادية" تزوج "شريف" بـ "بسنت"، وإنْ هي إلا تسعة أشهر حتى رُزق شريف بطفلة غاية في النضارة والجمال، وإلى هذه اللحظات كان "شريف" مهيمناً على زوجتيه وبيتيه وكان من ذلك أنه جمع الزوجتين في بيته الذي تزوج فيه "نادية"، إلا أنه جعل لـ "بسنت" شقة مستقلة فوق شقة "نادية" بالبيت نفسه.

أحست "بسنت" أنها حققت ما فشلت في تحقيقه ضَرتها "نادية" فأخذت تستطيل عليها مشاغَبَةً واحتكاكاتٍ وتلميحاتٍ وتصريحاتٍ.. وفي يوم كان "شريف" عائداً من العمل فسمع على درج السلم أثناء صعوده صوت الضَّرتين تتشاجران.. فماذا صنع "شريف" لإنهاء هذه المشاجرة؟

طرق "شريف" باب شقتيه ولم يدخل أياً منهما، وإنما وقف على السلم بين الشقتين وقال، بعد أن أسمع الزوجتين وابلاً من السبِّ والإهانة بألفاظٍ انتقاها على عينه من قاموس بيئة "المطرية"، بمفردات لم تدل فقط على إقذاع "شريف" وبذاءته، وإنما دلت كذلك على خبرته بكيد النساء، وحكمته في معالجة المشكلة جذرياً بما يتوافق مع بيئة شعبية مُغرِقَة في الخبث والمكر وسوء الطوية، طافحة بألاعيب النساء ومكرهن وكيدهن.

نادى "شريف" بصوت فيه الحسم والتهديد: "نادية".. "بسنت"، تزوجتكما لأنعم وأهنأ، فإن حققتما هدفي أبقيتكما على ذمتي وفي حضني وكنفي، وإن سببتما لي أدنى إزعاج تركتكما هذه الليلة أنام فيها عند أمي، أو في ورشتي بين أدواتي وعدتي، لأصحبكما معاً غداً إلى المأذون، لا أريد أن أعرف منكما ما المشكلة ولا من المخطئة ولا من المصيبة.. أريد أن تحققا لي شيئاً واحداً فقط هو سعادتي وهناءتي وإلا استبدلت بكما غيركما.. أتسمعان.. هل تفهمان؟

كان هذا هو التشاجرَ الأولَ والأخيرَ الذي وصل إلى مسامع "شريف"، بعدها اختفت التشاجرات سنين عدداً، وحين كانت تلوح بادرة من خلاف أو اشتباك أو مشكلة، كانت الزوجتان تحلانها سراً وتودعانها بئراً بعيداً عن "شريف"، بل بعيداً عن العيون التي قد يدسها عليهما "شريف"، وذلك بعد أن أيقنت الزوجتان كلتاهما جيداً أن "شريف" إنْ قالَ فَعَل، وإن هدّد أنفذ، بعدها.. كانت الضَّرتان تتسابقان وتتباريان في إسعاد "شريف" وإمتاعه.

ولعل مما يصور حالَ "شريف" ما قاله أبو رواحة عبدالله بن عيسى الموري:

تزوجْتُ اثنتين لحسْن حظِّي

بما يسلو به زوجُ اثنتين

لهذي ليلةٌ ولتلك أخرى

سرورٌ حاصِلٌ في الليلتين

رضا هذي يحسِّنُ فِعْل هذي

فأحظى بالسعادة مرتين

فعشتُ مدلَّلاً بالودِّ أبقى

أنعَّمُ بين ألْطف زوجتين

فإنْ سافرتُ عُدْتُ على هُيام

لأقطِفَ زهرةً من زهرتين

هما سَكَنُ الفؤاد ودِفْءُ عيشي

هما نورُ الحياة ومِلْءُ عيني

فأمْرُ الله بالإنكاح شرْعٌ

بما قد طابَ من أصْلٍ ودينِ

وفي الهرم..

تزوج المهندس "عواد" من "عائشة"، أحبها كثيراً وأحبته، عشقته وعشقها، عاشا معاً رحلة ممتعة لم تخلُ في بدايتها من قسوة الحاجة، وشظف العيش، ثم لاحت لـ "عواد" فرصة عمل وسفر، اصطحب "عواد" زوجته "عائشة" معه سنوات عدة بالمملكة العربية السعودية، ورزق منها أربعاً من البنين والبنات، وانتعشت حالتهما المادية فحجا واعتمرا مراراً بل استضاف "عواد" والديه للحج والعمرة.

كان "عواد" آية في بر الوالدين وصلة الرحم، كما كان كريماً مع زوجته وأولاده، يُغدق وينفق كأنه لا يخشى الفقر، ولأسبابٍ كثيرة اضُطر "عواد" أن يرجع إلى بلده، ويستأنف عمله الحكومي ذا الراتب المتواضع.

بعد العودة للمحروسة، أحس "عواد" بوطأة الحياة، وقسوة الغلاء، فحاول تحسين دخله باستثمار قدرٍ من ماله المدخر من سفره لسنوات، لكنه أخطأ الوجهة في الاستثمار وخسر جزءاً كبيراً من ماله.

عاود "عواد" محاولة الاستثمار مع آخرين لكنه أُصيب بنكبة مالية أكبر من أختها السابقة، وصُدم في أخلاق الناس وأمانتهم، فأصابته كآبة وحزن؛ ما دفعه إلى الاختلاء كثيراً بنفسه والتنصل من بعض مهامه ومسؤولياته كأب متعلم مثقف متدين.

استسلم "عواد" للشرود والإطراقات الطويلة، في وقت كانت زميلته في العمل قد أخذت في لفت نظره بالتقرب إليه، والتخفيف عنه، ولأول مرة وجد "عواد" نفسه يفكر في الارتباط بأخرى، ولكنه لم يسأل نفسه ما الأسباب؟

زوجتي طيبة، وأنا الذي اخترتها، وأنجبتْ لي أربعاً، وتحملتْ معي معاناة رحلة طويلة في الحضَر والسفر.. كان يهرب من الإجابة عن مثل هذه التساؤلات وغيرها.

ورغم رفض والد "عواد" الحكيم ووالدته الرؤوم مبدأ الزواج الثاني من دون أسباب، اتخذ "عواد" قراره فتزوج مما أتى على البقية الباقية من مدخراته من سنوات الغربة، فالعروس آنسة لها آمال وأحلام، وطلبات وحاجات.. ولابد من شقة تمليك، وأثاث فاخر، وشبْكة، وذهب، ومقدم، ومؤخر.. إلخ.

وبمنأى عن الوالدين وبمعزِل من مباركتهما تزوج "عواد" بالثانية، في الوقت الذي قرر فيه المخاطرة باستثمار آخر ما لديه في مشروع كان هو الأخيرَ مع الأسف، فلم يبقَ مع "عواد" شيء من مدخرات، وصار صاحب بيتين، وزوج اثنتين.

فوجئ "عواد " بما لم يخطر له على قلبٍ أو يدور له ببال، فقد جابهته زوجتاه بكيد النساء، وغيرة الضَّرتين، وكانت معادلة التوازن والعدالة صعبة عليه حتى مع محاولة الحرص عليها {وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ} [النساء: ١٢٩]. ومن أسفٍ أن "عواد" (المهندس) لم يكن في خبرة "شريف" (الفني) ولا في عزيمته وحكمته، أو حزمه وحسمه وحنكته.

لقد وقع "عواد" فريسة بين ضرتين، تستقطبه الأولى بمسؤوليات الأولاد، وتشده الأخرى بحقوق العروس، تجذبه أم الأولاد بماضٍ وتاريخٍ وذكريات وتبعات، وتمنّيه الثانية بهدوء وآمال وفراغ وأمنيات.

ثم اشتدت الاثنتان في اصطناع القلاقل والمشكلات، فكان أن تجافى "عواد" عن عُش التبعات والمسؤوليات، ولاذ بسكْرة الآمال والأمنيات، ومن يومها ظل "عواد" حائراً معذباً بين نداء المسؤولية ووخْز الضمير، وبين تلبية الفراش الوثير!

وربما صور حال "عواد" قول الشاعر في القصيدة المشهورة الواردة في أمالي القالي:

"قيل لأعرابي: من لم يتزوج امرأتين لم يذق حلاوة العيش. فتزوج امرأتين، ثم ندم، فأنشأ يقول:

تَزَوَّجْتُ اثنتينِ لِفَرْطِ جَهْلِي

بِمَا يَشْقَى به زَوجُ اثْنتينِ

فقلتُ أصيرُ بينهما خروفًا

أُنَعَّمُ بين أَكْرَمِ نَعْجَتَيْنِ

فصِرْتُ كَنَعْجَةٍ تُضْحِي وتُمْسِي

تُدَاوَلُ بينَ أَخْبَثِ ذِئْبَتَيْنِ

رِضَا هَذِي يُهَيِّجُ سُخْطَ هَذِي

فَمَا أَعْرَى مِنَ احْدَى السُّخْطَتَيْنِ

وأَلْقَى في المعِيْشَةِ كُلَّ ضُرٍّ

كَذَاك الضُّرُّ بينَ الضَّرَّتَيْنِ

لهذي ليلةٌ ولتلكَ أُخْرى

عِتَابٌ دَائِمٌ في الليلَتَيْنِ

فإنْ أَحْبَبْتَ أنْ تَبْقَى كريمًا

مِنَ الخيراتِ مَمْلُوءَ اليَدَيْنِ

فَعِشْ عَزَبًا فإنْ لم تَسْتَطِعْهُ

فَضَرْبًا في عِرَاضِ الجَحْفَلَيْنِ

٣٢- يا دكتور!

"أحمد "موظف ثلاثيني، يعمل باحثاً لغوياً، ويُحسن دخله باحترافه مهنة النقاشة .بعد زواجه حديثاً انتقل إلى محافظة أخرى قريبة من عمله، عاش حياة بسيطة فقيرة إلا أنها مستورة.

اعتاد "أحمد" الصلاة في المساجد المجاورة لسكنه الجديد، وفي أكبر هذه المساجد الجامعة (الخزان) التقى ثلة من الناس، ألفى فيهم المنطوي، والعابس، والمنطلق البشوش.

تعرف "أحمد" على "ياسر"، حيث كان الأخير اجتماعياً يجمعه وأحمد تقديره للعلم والعلماء، كما كان يشتركان في كونهما موظفين وفنيين، فقد كان "ياسر" موظفاً وفني ألوميتال، كانا يرتادان معاً المساجد ويغشيان المسجد الجامع كثيراً.

توثقت عُرى الصداقة بين "أحمد" و"ياسر"، وكان "ياسر" خفيف الظل واسع العلاقات، وبدا لـ "ياسر" أن يُكمل دراسته العليا، ويشق طريق الماجستير والدكتوراه، ثم استعان بصديقه "أحمد" في التصحيح اللغوي والإملائي لكتاباته.

وذات مرة وكعادة "ياسر" في المُزَاح، وجه الشكر لـ "أحمد" بالمسجد الجامع قائلاً له: شكراً لك على التصحيح يا "دكتور"، وكان صوت "ياسر " مرتفعاً وقد سمعه بعض الحضور.

أخذ "أحمد" مَزحة "ياسر" بابتسامة قائلاً له مداعباً: "أنت اللي دكتور"، مُعرضاً بالفيلم الكوميدي "مطار الحب"، حيث كان يقول فيه الراحل عبدالمنعم مدبولي لصنوه المهندس: "دكتور مين يا بني دا أنت اللي دكتور."!

كان "أحمد" كثير الارتياد للمسجد الجامع، فلاحظ أن مقيم شعائر المسجد يحدثه باحترام زائد، قائلاً له يا "دكتور!"

أحس "أحمد" بوقع كلمة "دكتور" على نفسه بجمال وجلال، ثم قال لنفسه: كلمة رائقة لها بريق في النفس أخَّاذ لو كان يدعمها ظل من واقع أو سند من حقيقة.

ثم لم يلبث "أحمد" أن انتابه شيء من الأسى والمرارة أن كانت هذه الكلمة جوفاء فهو ليس أهلاً لها ولا من مستحقيها .

وفي إحدى الصلوات فوجئ "أحمد" بمصلٍّ آخر يسلم عليه بـ: "يا دكتور أحمد"، فاستوقفه وقال له: أنا لستُ دكتوراً، إنما هي مَزْحة من مَزحات أخينا "ياسر"، بل هو الذي يسلك طريق الماجستير الآن، وقد يصبح قريباً دكتوراً إن شاء الله .

بدأ "أحمد" يستاء من وصف لا يتصف به، ومن فضل ليس له أن يدعيه، وأضحى يضيق بنعته ونسبته إليه؛ فغاب "أحمد" عن المسجد واختلف إلى غيره، آملاً أن ينسى الناس موضوع "دكتور."

وفي مسجد آخر إذا بـ "أحمد" يلتقي صديقه "ياسر"، فاغتنمها "أحمد" فرصة ليبث صديقه ضيقه وتبرمه من كلمة "دكتور" التي أخذت في الانتشار والذيوع، فتفهم "ياسر" المسألة وأخذها بمَرحٍ جادٍّ، ووعد أن يكفَّ عن مناداة "أحمد" بـ "يا دكتور"، وفي نهاية الحديث وبعد انصراف "أحمد" بخطوات داعبه "ياسر "قائلاً بصوت عالٍ له: مع السلامة يا دكتور !

ذهب "أحمد" إلى بيته فأدار زر الراديو على إذاعة القرآن الكريم، فإذا بضيف البرنامج يقول: وقد نبهت الشريعة الإسلامية إلى هذا الخلل.

فقال الله تعالى: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: ١٨٨]، قال ابن كثير – رحمه الله –: "يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يُعْطَوا."

وجاء في الحديث الشريف عَنْ أَسْمَاءَ رَضِي الله عَنْهَا أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي ضَرَّةً، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذِي يُعْطِينِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

"الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُور. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب: النكاح، باب: المتشبع بما لم ينل وما ينهى من افتخار الضَّرة حديث رقم: ٤٨١٨ .

وفي اليوم التالي وبعد عودة "أحمد" من عمله، كان يتناول الغداء مع زوجته، فأدارت الزوجة مؤشر التلفاز أثناء تناولهما الغداء، فإذا بضيف حلقة دينية يقول :

وعنه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنه قال: "وَمَن ادَّعَى دَعْوَى كَاذِبَةً؛ لِيَتَكَثَّرَ بِهَا، لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا قِلَّةً ."رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، حديث رقم: ١٦٠ .

قال الإمام النووي عند شرح هذا الحديث: "قال العلماء: معناه المتكثر بما ليس عنده، بأن يظهر أن عنده ما ليس عنده، يتكثر بذلك عند الناس، ويتزين بالباطل، فهو مذموم كما يذم من لبس ثوبي زور.

قال أبو عبيد وآخرون: فهذه ثياب زور ورياء، وقيل: هو كمن لبس ثوبين لغيره وأوهم أنهما له، وقيل هو من يلبس قميصاً واحداً ويصل بكميه كمين آخرين، فيظهر أن عليه قميصين.

وحكى الخطابي قولاً آخر: أن المراد هنا بالثوب: الحالة والمذهب، والعرب تكني بالثوب عن حال لابسه، ومعناه أنه كالكاذب القائل ما لم يكن .

وقول آخر: بأن المراد الرجل الذي تطلب منه شهادة زور، فيلبس ثوبين يتجمل بهما، فلا ترد شهادته لحسن هيئته، والله أعلم."

بارك "أحمد" لصديقه "ياسر" نيله درجة "الماجستير"، ثم قرر "أحمد" أن يُنهي مسألة مناداته بـ"يا دكتور " خاصةً أن أحد جيرانه صار يناديه بها.

لبس أحمد ثياب عمله بالنقاشة وتخير منها زياً يتضوع بروائح الزيت، والنفط، والمعجون، والدهان، تكسوه ألوان الطيف كلها، ثم نزل "أحمد" يصلي بهذا الزي عامداً في المسجد الجامع .

وعقب الأذان وعند ولوج "أحمد" المسجد التقاه مقيم الشعائر ونفر قليل من المصلين بإكبارٍ على غير توقع "أحمد"، وقد خاطب مقيمُ الشعائر "أحمد" قائلاً له:

يااااه.. أنت بتدهن شقتك بنفسك يا دكتور؟!

٣٣- غموض في مصر القديمة

في عصرٍ مُوغِل في القِدم امتدت جذوره في عمق التاريخ الفرعوني، قام الكَهَنة وسَدَنة الدِّين بدور سياسي خبيث، استطاعوا به أن يبثوا فزَّاعات مُصطنعة، ويختلقوا أوهاماً وظَّفوها لخَلق سَطْوة دينية تمكنوا بها من توجيه الأحداث السياسية، وإجهاض الانتفاضات الفكرية النابتة.

كما حاول الكَهنة –كثيراً– وأد بذور التمرد على تسلطهم ووصايتهم على الملوك والأمراء في كثير من الحقب والأزمان؛ لقهر الرعية من أجل تحقيق مآربهم المادية ومصالحهم السلطوية، مستخدمين في ذلك أدواتهم من الإلغاز والسِّحْر، والجمال والخوْف، والغموض والنَّصْب، والجان والوهْم.

الشخصيات:

]الملك– الملكة– ابنة الملك– قائد الجيش– كبير العَسَس– كبير الكَهَنة– مساعد كبير الكَهَنة.[

في قصر للملك مهيبٍ مشيد وفي ضُحى يوم مشرق غير صائف..

الملكة: صباح الخير إلهي وسيدي.

الملك: صباح النور زوجتي ومليكتي.

الملكة: مليكي، ما لكَ تبدو ساهمَ الطَّرْف حزيناً؟

الملك: اقترب موعد وفاء النيل.. وكم يحزنني أن يختطف الموتُ من بيننا فتاةً كل عام.

الملكة: إلهي وسيدي.. هذه طقوس الدين، بها يأمر سَدَنة المعبد والرُّهبان والكُهان.

الملك: في النفس أشياء من طقوس بالية توجِّه حياتنا، وتدبر أمورَنا.. تُريق فينا الدماء لتمنحنا الخصب والماء!

الملكة: سيدي، أراك جِدَّ مُتعبٍ اليوم.. كأنك بحاجة إلى راحة ونوم.

وفي بهو المعبد الكبير دار حديث بين كبير الكَهَنة ومساعده لتوجيه الأمر إلى الأعوان والأتباع..

كبير الكَهَنة: هذا العام وقع اختيارنا على ابنة الفلاح الفقير الذي أبى أن يُهدي المعبد بقرته، ستكون فتاته عروسَ النيل هذا العام. عليكم بإصدار الأوامر، وإشعار قصر الملك بتجهيز ذهب العروس وحُليها وكامل زينتها؛ كي تتهيأ للزواج من إله الخصب والنماء.

مساعد كبير الكَهَنة: أمرك سيدي، كما نفعل كل عام، سنوُثق الفتاة بالسلاسل والحديد فلا تستطيع السباحة أو النجاة، وكيما يسهل علينا ليلاً سحب جثتها من خلال السلاسل المربوطة بباطن المركبة وغاطسها لتجريدها من الحُليّ الملكية وزينة القصر العَليَّة.

وفي بهو القصر الملكي دار حديث بين الملك وقائد الجيش..

قائد الجيش: إلهنا ومليكنا المعظَّم، عِمْتَ بالخيرات دوماً.

الملك: عِمْتَ صباحاً قائد الجيش، ودرع العباد والبلاد.

قائد الجيش: هل تأمرون بجديد سيدي ومولاي؟

الملك: نعم.. ضِقتُ ذرعاً بسَدَنة المعبد وكُهانه، لاسيما كبيرهم وأعوانه.. عليك إحكام مراقبتهم.. وموافاتي بأنبائهم وتحركاتهم.

قائد الجيش: السمع والطاعة جلالة الملك.. أنا رهن الإشارة وقيد العمل.

الملك: انصرف الآن راشداً.. وتذكر أني أمقت سفك الدماء.. فاجعل آخر الحلول دماً يراق.. أو نفساً تزهق وتباد.

قائد الجيش: أمر إلهي، هي الحيطة إذن والحذر، ولا إمضاء لشيء دون معاودتكم والنظر.. بعد رَصدٍ ويقينٍ لكل خبر.

الملك: لِمَ لَمْ تسألني عن مبعث ضيقي من الكَهَنة والضجر؟

قائد الجيش: وهل يُسأل الإله أو المليك عن العلة والسبب؟

الملك: أمران يؤرقان الملك: عروس النيل، وتبديد الحُليّ واختفاء الذهب.

قائد الجيش: لا أَرَقَ بعد ذلك على المليك ولا قَلَق.. بل هو الأمن والأمان.. والسَّلام والرغَد.

الملك: انصرف مباركاً.. وجئني وقت اليقين بالدليل والظَّفر.

في مخدع الملك..

الملكة: سيدي، الحمد لك.. أراك اليوم في راحةٍ أكثر من أمس ونَعَم.

الملك: أنا اليوم طيب، ما دُمتِ وابنتُنا والرعيةُ بخيرٍ في آلاءٍ ونِعَم.

الملكة: دمتَ لنا إلهاً مليكاً.. عزاً تليداً.. وبعلاً رفيقاً.. جلالةَ الملك.

الملك: أين ابنتُنا.. أريد أن أراها.. أتحسس رأسها، وأَشَمُّ شذاها.

الملكة: تمثُل فوراً بين يديك.. لتسعد بها أميرةً وتقر عيناً بالمليك إلهاً وأباً.

الملك (مُطرقاً): أخشى ما أخافه مليكتي أن تكون ابنتُنا يوماً هدفاً للقدر.

الملكة (ضاحكة): ملك يخشى على ابنته.. وأين الجيش.. والكُهان والحجَّاب والرَّصَد؟

الملك: مِن الكُهان والسَّدَنة وكبيرهم يحذر مليكك أن يُخاتل أو يُغتال أو يُغتَدر.

الملكة: مليكي.. ما خشيتُ يوماً على ابنتنا إلا من مرضٍ عُضال أو من موتٍ مصيريٍّ وتمام أجَل.

الملك: كَبُرَتْ شوكة كَهَنة المعبد، وفي الرعية فشت فِتنتهم واستطارت.. وبمقدرات البلاد استبدت وطغت.

الملكة: لا أرى ما يراه المليك المُبجل.. هل هي الظنون والشكوك.. أم نبأ هناك وخبر؟

الملك: أدبر لأمرٍ جليلٍ وما عليكِ الآن إلا التكتم والضراعة من أجل تحقيق الأمل.

الملكة: سيدي ومليكي، فدتك الأقدار ووقَتْك.. فليس في الوجود مثلُك ولا في الزمان مَن يُشبهك!

قائد الجيش يجتمع وقادة الحرب والعَسَس بديوان الحرب..

قائد الجيش: أوامر من الإله الملك بتتبع العَسَس لحركات المعبد وسكناته وكبير السَّدَنة وأعوانه.

كبير العَسَس: أوامر الإله محل التقدير والعمل.. أبشر قائد الجيش وتفاءل بالنصر والظفر.

قائد الجيش: مولانا لا يريدها هَرْجاً ومَرَجاً.. لا يبغي سفك دمٍ، ولا قتل نفسٍ، وزهق روحٍ، أو أدنى خطر.

كبير العَسَس: مفهوم قائدَ الجيش ودرعَ الوطن.. الحيطة والحذر، والحيلة والمكر.. الموادعة إلا من خيانةٍ مِمَّنْ غَدَر.

قائد الجيش: أحسنتَ كبيرَ العَسَس، انطلق بجندك لا تألُ جهداً ولا تنِ أو تتأخر شيئاً في العمل.

كبير العَسَس: حين يلوح البرهان.. أو أرمق الدليل سآتيك من فوري بالأمر والخبر.

وفي قاعة المعبد السرية..

كبير الكَهَنة: أشم رائحة تتبع وبوادر مكيدة وخيانة، فلتأخذوا حِذْرَكم، ولتُوقفوا في بهو المعبد أحاديثكم.

مساعد كبير الكَهَنة: سيدي، الكل هنا رهن إشارتك، وأسير نوالك وعطائك، وطوع نهيك وأمرك.

كبير الكَهَنة: اجتماعاتنا ستكون بسرداب المعبد وقاعته السرية، لا حديث عن حُليّ ولا ذهب، لا نقاش حول سَلْبٍ أو نَهْب، أو بيع أسرارٍ للعدو وأسلحة، وتسريب رسائل وكُتب، وحذار من حديث عن مشروع الهرم.

مساعد كبير الكَهَنة: أمر السيد والمولى الهمام، طوع مراد عظيم السَّدَنة والكُهان.

كبير الكَهَنة: هذه روائح بخور المعبد تشي بيقظة وريبة.. وقلق وترصُّد.. بتتبع لنا وارتياب وتمرُّد.

مساعد كبير الكَهَنة: وماذا عن الأرواح والجان.. هل صدقًا رائحة البخور أم لها يُكذِّبان ويُنكران؟

كبير الكَهَنة: سأنظر في أمري وقت السَّحَر للتأكد والتبيُّن.. وسيكون لنا شأن عند التثبُّت والتيقُّن.

مساعد كبير الكَهَنة: سيدي، ما الذي يجب أن أفعله الآن؟

كبير الكَهَنة: انطلق فاستدعِ لي جميع الكُهان.. سواء منهم الساهر والوسنان.

مساعد كبير الكَهَنة: أمر كبيرنا، الكل يمثُل بعد قليلٍ لقدس الأقداس لن يتخلف كَاهن من الناس.

كبير الكَهَنة: لأمرٍ ما جللٍ وارتياب.. سنتوقف –قليلاً– عن فرض ضرائب دينية وممارسة ضغوط وإرهاب.

مساعد كبير الكَهَنة: وابنة الفلاح.. العروس التي ستزفّ قريباً إلى إله الخصب والنماء؟

كبير الكَهَنة: هذه سيتم إغراقها حتماً.. بعد إعلان البيان بانطباق شروط الآلهة عليها من جمال وبكارة، وحُسن ونضارة؛ وسمت ووصف ووضاءة.. تأديباً لأبيها الفلاح، وإرعاباً للملك على أميرته وابنته.. هيَّا انصرفوا لتنطلقوا في باكورة الصباح.

ابنة الملك تستيقظ ليلاً فَزِعَةً مهرولة تطرق باب مخدع الملك..

ابنة الملك: إلهي.. مليكي.. أبتي، أدركني من كابوس وأرق، أنقذني من مَوتٍ مُوشك وغرق!!

الملك: ابنتنا، تعالي ادخلي وتفضلي.. لا تراعي واهدئي.. أخبريني لِمَ الأرق.. وأي غرق؟

الملكة: ابنتي، قرة العين وفلذة القلب والكبد.. فدتك آلهة الخير من كل عين ونظر.

ابنة الملك: أمي.. أبي.. رأيت حُلماً رُعبٌ كلُّه.. فيه النَّصَب والتَّعَب.. كنتُ فيه وفاءَ نيلٍ وفداءَ مصرَ والوطن.

الملك: لا تخافي ابنتي من غِيلة وموتٍ وغَرَق.. هل نسيت مَن أبوكِ ومن أمكِ وعريقَ الأُسر والحسب والنسب.

ابنة الملك: ما نسيتُ.. لكن كبير الكَهَنة والعُبَّاد.. أخبرني في الحُلم: بأن إله الخصب قد اختار الأميرة ولها خَطَب.

الملكة: تباً ليدٍ تمتد إليك بسوء وعَطَب.. أتسمع جلالة الملك ما به الكاهن قد جَرُؤ وصدع وكَذَب؟!

الملك: لا تقلقا.. هي أحلام وأضغاث.. وأوهام وَلَغَط.. دعا الأمر لي.. هيا مليكتي اصحبي الأميرة للهدوء والسكن.

قائد الجيش وقادة الحرب والعَسَس وقد اجتمعوا بعد المراقبة والرَّصْد..

قائد الجيش: كبير العَسَس، أنهِ إليَّ الخبر أو الخَطْبَ والنبأ.

كبير العَسَس: ظنونك كانت حقاً والقلق.. هي الخيانة دون شك أو نظر.

قائد الجيش: ماذا هنالك.. أفصح أكثر.. وأبن؟

كبير العَسَس: الكُهان هم الفُسَّاق.. كلهم طَمَعٌ وَجَشَع.. يُوهمون الملك دوماً والرعية بالخطر.

قائد الجيش: نعم.. ثم ماذا يا رجل؟

كبير العَسَس: يُخزِّنون الذهب، ويقتنون الحُليّ بعد السَّلْب والنَّصْب.. والنَّهْب والشعوذة والدَّجَل.

قائد الجيش: وعرائس النيل.. والقحط والفقر.. والجفاف والجدب والعَوَز؟

كبير العَسَس: فزَّاعةٌ ووهمٌ.. افتراءٌ وإفكٌ وكذب.

قائد الجيش: الدليل والبرهان الساطع، وإلا فهو ادعاء واختلاق موضع نظر.

كبير العَسَس: الحُليّ والذهب بسردابٍ إِثْرَ سردابِ بصومعة الكاهن الأكبر ومخدعه.

قائد الجيش: أنباء أكيدة دون ظن أو حَدْسٍ وشُبَه؟

كبير العَسَس: أجل.. وجثث العرائس مُحنطة مُمددة في توابيت ونعوش ناجزة للرؤية والنظر.. قد جهزوها للبيع مع أسرار عسكرية للبلد.

قائد الجيش يتوجه مسرعاً لقصر الملك..

الملك: تعالَ أقبل درع البلاد، لا تخشَ شيئاً ولا تخف.

قائد الجيش: إلهي.. مليكي.. سيدي المفدَّى من سوء القدر.

الملك: هاتِ ما عندك.. أرى في عينيك النبأ والخطب الجلل.

قائد الجيش: السَّدَنة والكُهان.. بالسحر والغموض والجَمال.. يخونون مصر والمليك ويَشْرُون العباد والبلاد.

الملك: كيف.. وافني بالأنباء والبرهان.. ما القصة.. ما الخبر؟

قائد الجيش: سيدي ومولاي، الذهب يسرقون، والسلاح يبيعون، ولإغراق الأميرة ينتوون ويبيِّتون.

الملك: ماذا؟.. الآن وجب عليَّ أن أَرْسُم بدقة.. وأُحكم الخُطَّة.. وأدبِّر المكيدة للبطش بالطُّغاةِ الخَوَنَة.

قائد الجيش: تحت أمر الجلالة، ورهن البدء بالإشارة.

الملك: اجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ، وجهز مركب زفاف ابنة الفلاح.

قائد الجيش: أمر سيدي الملك.. ولكن متى العمل.. الآن أم في الصباح؟

الملك: بل الآن مع انتهاء الظهيرة وقبل الغروب.. واجمع كذلك السَّدَنة والرُّهبان والكُهان.. واجعل جماهير الناس بين شاطئي النيل على قناطرَ خشبيةٍ لمشاهدة مسرح الأحداث والمطالعة الجيدة والرؤية والنظر.

قائد الجيش: أمر مولاي نافذ في التو والحال.

الملك: سنمضي في مراسم إغراق عروس النيل، وعند إشارة مني تُسلسلون مَرَدة السَّدَنة، وزعماء الرُّهبان، وكبير الكُهان.. وكل أتباعهم والأعوان.

قائد الجيش: وهل سنُغرق الفتاة حقاً؟

الملك: لا.. إنما سنُشعر الكُهان جميعهم بأننا سنغرقها، وقبل الإغراق بلحظات وفي الوقت الذي تفكون فيه السلاسل عن العروس، فريق منكم يبادرون بتقييد الكَهَنة جميعاً كبيرهم وصغيرهم.

قائد الجيش: وعندما يتساءلون.. كيف لقيود عروس النيل تحلون وتفكون.. ولأيدينا وأرجلنا وأعناقنا تأسرون؟

الملك: لا تخف سأكون معكم لأباغتهم وأبهتهم.. فالفتاة للسباحة لا تجيد.. فلِمَ الأغلال وعَلَامَ السلاسل والقيود؟

وسأصدع حينها بخطابٍ لم تسمعوه، وأُدلي بأمر لم تعهدوه..

قائد الجيش وقد نفذ أوامر الملك.. واجتمع الناس فريقين ليشاهدوا مراسم عُرس النيل كما هي العادة من كل عام منذ القِدم..

الملك: أين عروس النيل؟.. ادنوها مني.. وإليَّ قربوها.

قائد الجيش: حالاً جلالة المليك.. تكون العروس بي يديك.

الملك (ناظراً للعروس متخيلاً ابنته مكانها): اقتربي فداءَ البلاد والعباد.. زوج إله الخصب والنماء.

قائد الجيش: نحن بانتظار الأوامر الملكية كي نبدأ مراسم الزفاف والفداء.

الملك: قد علمتُ أن العروس لا تعرف العَوم، وما نزلتْ نَهَراً ذات يوم.

قائد الجيش: إلامَ يُشير جلالة الملك ويقصد؟

الملك: فُكُّوا فوراً عن الفتاةِ القيود.. هل رأيتم عروساً تزفُّ إلا بزينة وشُهود.. أليس هذا هو المعهود؟!

قائد الجيش: أوامر مولانا الملك.. فوق الرأس والعُنق.

كبير الكُهان: لكن إلهنا المجيد.. هذه تقاليد الآباء من قبلنا والجدود.

الملك: مشيراً بفك القيود عن العروس، وبوضعها في أيدي وأَرْجُلِ الكَهَنة وبالرقاب منهم دون الرؤوس.

قائد الجيش: بأمر الملك.. يُقيد جميع كَهَنة المعبد، وسَدَنة الصوامع، ورهبان الأديرةِ والبِيَع.

الملك: إليَّ بالذهب المسروق، والحُليّ المسلوب، والجوهر المنهوب.

قائد الجيش: أمر المليك.. أحضروا المسروقات والمنهوبات.. ولا تنسوا توابيت العرائس والمومياوات.

الملك: جموع شعبي العظيم، ما حكمكم على رجال دينٍ، كفروا ربهم، وعبدوا شهواتهم وشياطينهم، خدعوكم وختلوكم، وبفزاعة الجدب والقحط أرهبوكم، ولحليكم وذهبكم نهبوكم، وبالجان والأرواح الخبيثة أخافوكم وأرعبوكم.

أغرقوا بناتكم وفتياتكم، وهربُّوا وباعوا السلاح والعتاد لأعدائكم؛ بل حنطوا العرائس لبيع التوابيت مع أسرار الجيش وعلم الطب والتحنيط؟

جماهير الشعب: إلهنا العظيم، ومليكنا الكريم.. القتل لهم جميعاً غَرَقاً مسلسلين.

الملك: جموع شعبي العظيم، بعد أن نفذنا الحكم على الخائنين الغادرين.. أبوح لكم اليوم بشيء غريب جديد..

لو كنتُ إلهاً لعلمتُ تدبير الكُهان منذ أوانٍ مضى وزمان.. إنما أنا فرعون.. حاكم مليك، من ورائي آلهة نور وضياء، وخصب ونماء، وخير وسلام ووفاء.

ومن وراء هذه الآلهة المعبودة إله واحد عظيم، هو الخلاق العليم، مستيقظ حين تنامون، وقيوم حين ترقدون، يمد هذه الآلهة بالآلاء والنِّعَم.

نعرفه وقت الكَرْب والكُرَب.. وعند الشدة والمرض، والبأساء والضرر.. هو مَنْ ينجينا وقت المكاره والحتوف، ادَّارك علمه كل شيء في الوجود، ولا يعزب عنه شيء أو كائن

موجود، سلطان علمه وقدرته بلا حدود، يشمل برحمته كلَّ أمرٍ وشيء دقَّ أو جَلَّ.. فالكل محصور لديه ومعدود.

إلهٌ منا قريب كحبل الوريد، خيره وفضله مبسوط غير بعيد، يعوزنا للدلالة على ذاته وصفاته وعرشه ومكانه برهان ساطع، ودليل قاطع، من نحو نبيٍّ أو رسول، أو مَلَكٍ مُقرب طَهور.

الحقَّ أقولُ لكم: إن بقيتُ فيكم فلن أخدعكم، وإن متُّ فلا تضلوا أنتم بعدي.. الإله الحق إله يمقت الحرب وينشر السلام، يربأ الصدع، ويعدل بين الأنام، يحب الخير وفاعليه، ويكره الشر ويُمهل مرتكبيه، إله يمنح مدرار الماء وينهى عن القتل وسفك الدماء.

إله إذا أحبنا أكرمنا، وإن أبغضنا أرجأنا ولم يُهنا، جسيمة آلاؤه، عظيمة نعماؤه، يعفو ويصفح، يسامح ويعذر، ويجود ويمنح، يعطي ولا يمنع، المحبة والوُد جوهر ربوبيته، والعدل والحق سرُّ ألوهيته، والفضل عنوان كرمه ورحمته.. انصرفوا لأعمالكم راشدين.

٣٤- بائع الأسماك

تعلم "محمود"، صياد السمك وبائعه، من طبيعة مهنته أن يربط أحداث حياته الغيبية وصفقاته المستقبلية بجملة "إن شاء الله."

فمن يريد نوعاً معيناً من السمك ويطلبه من "محمود" سلفاً يقول له: إن شاء الله، ومن يسأله: هل ستكون موجوداً غداً بالسوق؟ يسارع "محمود" بقول :إن شاء الله.

"محمود" صياد قانع راضٍ لا يستبطئ رزقاً، ولا يستعجل فَرَجاً، ولا يدعو إلا مضطراً، وتراه في ذلك كله حريصاً دقيقاً جداً، فلا يأخذ عُربوناً من أحد، ولا يقبل مالاً مُقدَّماً، يحرص دوماً على أن يكون بيعه وشراؤه يداً بيدٍ في وقتِ البيع والشراء.

في الصباح..

بعد صيد وفير، عاد "محمود" إلى السوق جذلانَ يعرض في رضاً ما رزقه الله به، فهذه أسماك من نوع البلطي، وتلك قراميط، وأخرى شيلان، وأخيرة أسماك صغيرة متباينة الأنواع.

وقف "محمود" بابتسامة التاجر الصدوق يستقبل الزبائن بعد أن أحسن عرض بضاعته من الأسماك، وقد وفَّر لها أماناً وحماية من أشعة الشمس، وبيئة من الماء والثلج تحفظ للأسماك حياتها وسلامتها.

رجل: أريد هذا القرموط الحي، زنه لي، لكن دعه في الماء حياً حتى أعود إليك بعد تسوقي وتجوالي.

محمود: سيدي، تسوَّق ثم تعالَ، فإن وجدتَ القرموط وزنتُه لك، أو أزنه لك الآنَ وتأخذه معك.

رجل: وما يمنعك أن تزنه وأحاسبك عليه ثم أمضي لحاجتي وأعود إليك؟

محمود: يمنعني أن القرموط قد يموت وأنت تريده حياً، وأنه قد ينقص وزنه خلال غيابك؛ لأن السمك لا يأكلُ بعد اصطياده.

رجل: هذا حسنٌ، سأعود إليك بعد تسوقي، فلا تبع القرموط وأبقه لي.

محمود: تعود بسلامة الله، هذه أرزاق تُساق إلى أصحابها، فعسى أن تكون من أهلها.

وبعد انصراف الرجل..

امرأة: صباح الخير يا عم "محمود"، نهارك فُل.

محمود: صباح النور.. طلباتك يا ست الكل.

امرأة: زن لي هذا القرموط الكبير، وأسرع فإني قادمة من سفر وفي عجلة من أمري.

محمود: حالاً، يا سيدتي.

امرأة: هل القرموط حي؟ زوجي يهوَى أكل القراميط الحية العابثة.

محمود: سيظل معك حياً، إن شاء الله، حتى تصلي بسلامة وأمان.

وبعد عودة الرجل من تسوقه وتجواله..

الرجل: سلام الله عليك يا عم "محمود"، هيا زن لي القرموط.

محمود: عذراً سيدي، ليس من نصيبك قد بعته منذ قليل.

الرجل: كيف وقد طلبت إليك إبقاء القرموط حياً حتى أعود؟

محمود: الحياة بيد الله وحده، والشراء كالطعام رزق وقضاء.

الرجل: أنا في البيت بمفردي ولا أُحسن غير شواء القراميط.

محمود: إن أردتَ هناك أسماك أخرى، وقراميط نافقة، لا حراك بها ولا حياة.

الرجل: لا، وشكر الله لكم، فهي الأرزاق كما قلتَ، الحمد لله على كل حال.

محمود: عذراً، فهذه طريقتي في البيع والشراء، حظاً طيباً غداً إن شاء الله.

وبعد انصراف الرجل ووصوله إلى البيت..

الرجل: ما لهذا المفتاح لا يعمل.. لقد أغلقت به الباب منذ ساعتين أو ثلاث؟

وبعد محاولات عديدة لفتح الباب من دون جدوى، يدفع الرجل باب البيت ويطرُق عليه محدثاً جَلَبَة، فإذا به يجد زوجته تفتح الباب الذي أغلقته وقد سمعتْ صوته من الداخل، وذلك بعد أن عادت من سفرها لزيارة أمها.

استقبلت المرأة زوجها بابتسامة في رِقَّة الفَرَاش، وعذوبة السَّحَر، ووداعة القَمَر، ثم أخبرته بأن "أكلة القراميط" التي يشتهيها ستكون بعد قليل جاهزة بين يديه!

٣٥- ماسح الأحذية

نشأ "رجب" يتيم الأبوين في كفالة بعض أقاربه الفقراء، الذين سرعان ما دفعوا به إلى أبواب المساجد، وساحات الأسواق، ودهاليز الأزقة والحارات للاستجداء والشحاذة، ولم يكن لـ "رجب" أثارة من تعليم، ولا حظ من حرفةٍ أو مهنةٍ أو عمل.

كان "رجب" يتمنى أن يختلف إلى الكُتَّاب ثم إلى المدرسة كباقي أقرانه، ثم حين استحالت هذه الأمنية رجا من الله أن يتوب عليه من التسول ظاهره وباطنه.

فكَّر "رجب" أن يخبئ قدراً من المال الذي يتحصَّل عليه كل يوم من الشحاذة عن أعين أقاربه الذين يُؤونه؛ حتى يتمكن من مغادرة القرية إلى المدينة ليلتمس رزقاً بعمل اليد لا بمدها، وبعرق الجبين لا بخجله ونداه!

استطاع "رجب" أن يغادر القرية إلى المدينة، ثم سافر فيما بعد إلى القاهرة التي ابتلعته في أحد أحيائها، ثم فكَّر "رجب" كثيراً في تأمين مكان يأويه قبل أن ينفد ما معه من مال، فاكترى حُجرة متواضعة بحمَّام فوق سطح أحد المنازل المتواضعة.

خرج "رجب" مبكراً يلتمس عملاً، فعمل مرات في مجال التشييد والتعمير والإنشاءات، ثم لم يلبث أن ترك هذا المجال لطبيعته العنيفة، وسوء الوسط الذي يحيط به؛ إذ كان "رجب" يميل إلى التدين الفطري والسلوك القويم، تؤرقه ممارسة التدخين، ومعاقرة الخمور، واقتراف المخدرات، والحديث عن المغامرات مع النساء.

كان "رجب" يفكر في عمل خاص به لا يشركه أو يخالطه فيه أحد، فلا يرتبط فيه بحضور وانصراف ولا بصحبة زملاء العمل، فقرر أن يصنع صندوقاً خشبياً يصلح لمسح الأحذية، ثم نحت فيه أماكن لزجاجات الصبغات مختلفة الألوان، ودسَّ في أحشائه عُلب الورنيش،

وبعض قطع القماش والإسفنج، وأودعه فُرشتين وقطعتين من الصوف خصصهما لبريق المسحة الأخيرة للأحذية.

اختار "رجب" أن يكون عمله بجوار المساجد، فبقربها يمكنه أن يتنظف ويتوضأ لكل صلاة، كما يمكنه أن يخرج بصندوقه بعد كل صلاة لمن أراد أن ينظف حذاءه ويلمعه من المصلين المنصرفين، فإذا قُضيت الصلاة وانتشر المصلون ذهب إلى ساحة سوق أو ميدان رئيسٍ يكون بالقرب من مسجد أو جامع كبير ليواصل ممارسة عمله.

اعتاد "رجب" أن يحمل معه حقيبة بلاستيكية يضع فيها جلباباً نظيفاً يُصلي فيه، مع كيس من مسحوق غسيل، يغسل به يديه جيداً من ألوان الصبغات، ثم يتوضأ ويصلي في ثوبه الذي أعده لهذه المهمة.

"رجب" أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، إلا أنه لارتياده المساجد تعلم من استماعه للخطب والدروس معلومات دينية قليلة، تمسَّك بها وحافظ عليها، وكان من ذلك ما علق بذهنه من كامل سورة الفاتحة وما تيسر من آيات الذكر الحكيم التي يُكثر الأئمة والشيوخ من تلاوتها، وبعض أذكار الصباح والمساء.

في الصباح..

زَبون: صباح الخير يا "رجب".. أريدُها لامعة كالذَّهَب.

رجب: لا تقلق، سترى بريق نعليك كجمرةٍ من لَهَب.

زَبون: مساء الخير "رجب"، أسرع فقد أصابني بلل ومطر.

رجب: لا بد إذن من غَسْلٍ ومسح ودهان.. فبعض الصبر.

زَبون: أدركني، انحلَّ الخيط وفُتق الجلد، وقُطع الرِّبَاط.

رجب: هذا الرِّبَاط، ولصقٌ ورتقٌ لفتقِ الخيط والجلد.

زَبون: "رجب"، انظر.. هذا جرح بإصبعي من حذائي بالأمام.

رجب: لا بأس عليك، هذا فَرْشٌ يريح الأصابع جداً والأقدام.

زَبون: هذا الحذاء ضيِّق على قدمي جافّ جلده وشديد.

رجب: حالاً سأشد الحذاء بقالبٍ ليطرى الجلد ويلين.

زَبون: أسرع "رجب"، فقد تأخرتُ كثيراً اليوم.

رجب: استيقظ مبكراً وقَلِّل قليلاً من النوم.

تزوج "رجب" ولم يُنجب، وعاش حياة خشنة بَيْدَ أنها هنيئة مع زوجته، في شقة من غرفتين بالدور الأول حتى صار شيخاً ستينياً، كان يستيقظ وزوجه قُبيل الفجر، يتوضآن ويصليان، ثم يودعها ليدرك صلاة الفجر جماعة بالمسجد.

من المسجد كانت انطلاقة عمل "رجب" طوال النهار، ثم عقب صلاة العشاء كان ينقلب "رجب" إلى البيت، وفي طريقه إلى البيت كان يشتري ما يحتاج إليه من أدوات العمل ومتاع البيت لصباح اليوم الجديد.

وفي البيت..

رجب: السلام عليكم شقيقة روحي والنَّفْس.

زوجته: وعليك السلام سلمتَ من كل بأس.

رجب: ما لكِ زوجتي هل كنت في أمرٍ ما تفكرين؟

زوجته: نعم.. كنت أحْلُم بـ "كُشْك" يضمك من قارعة الطريق.

رجب: الكشك محدود، وأنا كالطيور لا أحب القيد والضيق.

زوجته: "كشك" تأوي إليه من لافحِ حرٍّ وصيف وقارسِ شتاءٍ وبرد.

رجب: "كشك" أخشى عليه من حَرَقٍ وسَرَقٍ وسطْوٍ ونهْبٍ وسلْب؟

زوجته: "كشك" يظلك ويأويك ومن كل سوء بين أركانه يحميك.

رجب: أخشى من فتنة بيعٍ وشراء وشغلٍ عن إجابة نداء السماء.

زوجته: يا رجل احْلُم معي وهل الأحلام إلا أماني عِرَاض وآمال؟

رجب: نعم هيا نَحْلُم معاً.. لكن عظِّمي حُلمَكِ ومجِّدي فيه الأمل.

زوجته: وبأي شيء نَحْلُم وأنت تعلم الحال والمعاش والسند؟!

رجب: نحلم بحجٍّ وعُمرةٍ وطوافٍ وسعيٍ وماء زمزمَ والرَّمَل.

وزيارة محمدٍ وبكرٍ وعمر وحمزةَ الأسد وجميع شُهداء أُحد.

فكم أتوق لمسح نعلِ نبيِّنا ولَثْمِ يديه والقدمين والجَسَد!

٣٦- قناص الأرامل

شَغَلَ الرأيَ العامَّ تعددُ بلاغاتِ كثيرٍ من المواطنات الأرامل، في معظم محافظات مصر، عن نصَّابٍ يركِّز نشاطه على ساحات البنوك، باصطياد نوعٍ خاصٍّ من الضحايا.

ولا يكاد يُخلِّف هذا النصَّاب وراءه أثراً لجريمة، إلا ما كان من أرقام هواتف متباينة سرعان ما يتخلص المجرم منها، أو أرقام زائفة لسيارات مُستأجرة!

"كمال" أربعيني عَزَب، في أوج النضارة، وذِرْوة القوة، وأسْر الفُتوَّة، قَسِيم وَسِيم، ينتقي أزياءه على عينٍ منه وخبرة ونظر.

هو ممن إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم، من الذين لا تُعجزهم الحيلة اعتذاراً ودفاعاً، أو شرحاً وإقناعاً؛ فلديه لكل خُلْفٍ مبرِّر، ولكل كَذِبَةٍ مُسوغ، وحجة وبرهان، ومعسول عَرْضٍ وبَيَان.

دأب "كمال" على أن يفتتح لنفسه حسابات متعددة في كثيرٍ من البنوك والمصارف ويتردد على فروعها بالمحافظات، لا سيما تلك البنوك التي يعرف هو سلفاً أنها تعتمد الحسابات الجارية لأصحاب المعاشات المبكرة وغير المبكرة.

كان "كمال" يتردد على هذه المصارف بصورة دائبة إلا أنها متفاوتة الزمان والمكان، يسحب من هذا البنك عِدَّة آلاف لا تزيد ولا تنقص ليُودعها في آخرَ، ويسحب من بنكٍ آخرَ ليودعها هذا البنكَ، وهكذا دَوَالَيْك.

تتركز معاودة "كمال" للبنوك في أوائل الشهور، ومع اليوم التاسع إلى اليوم الخامس عشر من كل شهر، تلكم الأيام التي تتدفق فيها الأرامل وذوات المعاشات إلى البنوك صرفاً أو إيداعاً، أو لأخذ فوائد الودائع ربع ونصف السنوية.

"كمال" لا يؤم البنوك ويقصد العميلات من الأرامل لسرقة حافظات وحقائب الأموال عَنْوةً أو خطفاً، إنما بغية "كمال" كانت نشل قلوب الأرامل، واصطياد أفئدة صاحبات الحسابات الجارية، والودائع المكنونة، وشهادات الاستثمار العامرة؛ أملاً أن تسلِّم كلُّ واحدةٍ من هؤلاء الأرامل لـ "كمال" فيما بعد قلبها، بعد أن تخضع أمام سخاء "كمال"، وبذخه، وهداياه، وساحر حديثه، وجميل مُحياه.

لا يلبث "كمال" بعد ذلك أن يُلوِّح لضحيته، بعد أن تكون قد تعلَّقت به وتتيَّمت، بأنه في حاجة إلى قرضٍ حَسَنٍ لأزمة مالية عاصفة، أو ضائقة مالية عارضة.

بل أحياناً كثيرة يلجأ "كمال" إلى إبداء رغبته في التقدم لخِطبة الأرملة، لكنه سرعان ما يحجم عن التقدم للخِطبة بذريعة ضِيق ذاتِ اليد، أو لعَوَز مؤقتٍ؛ ومن ثم تخلع عليه ضحيته ما يمليه عليها من مال، ثم لا يلبث أن يختفي من حياتها مع آخر ما يمكن أن يبتزه من مالها.

لا يبدأ "كمال" في إلقاء شباكه فُجَاءةً، بل يحرص على أن يكون في باكورة الداخلين إلى البنك صباحاً، يقعد بالقرب من نوافذ الصرف يتصفح الجرائد بثقة كأنه من كبار العملاء، بعد أن يأخذ أوراقَ حجزٍ لعدة أدوار خلال أوقات مختلفة أثناء الدوام من دون أن يلفت الانتباه أو يثير النَّظَر.

كان "كمال" يتفرس من حوله، ثم يكتب في تقريره:

هذه "فلانة"، بعد أن يعرف اسمها من حوار موظف الخزينة معها، أو من العامل الذي يصور البطاقات الشخصية والهُويَّات ثم ينادي على أصحابها.

ويسترسل "كمال" في تقريره: يبدو على هذه المرأة الاحتشام والخجل، لكنها لا تخلو من محاولة وأمل، والمناسب لها جدية تعامل، واحترام نفسٍ وأدب، وعدم عجلة معها وضبط النّفْس وطول الأمد والنَّفَس.

أما تلك المرأة فتبدو اجتماعية باسمة، تتطلع إلى حديثٍ وكلام، تُبدد به طولَ وقتِ الملل والزِّحام، أو إلى خروجٍ وعودة مع موعد الصرف والإيداع، فاصطيادها أمر يسير، وأَسْرُها شيء هيِّن قريب غير عسير.

لكن هذه صوتها عالٍ، وحركاتها كثيرة، ولا تبدو عليها ملامح الثراء، وربما كانت من الشرسات في ردها على تحية، أو عرْض خِدمة، فلتُؤجَّل محاولة اقتناصها إذن إلى ذيل القائمة حتى تتضح المعالم وتظهر البينة.

كان لا يقفُ أمامَ ذوق "كمال" ولباقته، وعرْض خدماته، إلا مُتديِّنة خَلوقة لا تَكَلَّمُ إلا بحساب، ولا ترُدّ إلا بقَدَر، ولا تنبس إلا لداعيةٍ وسبب، لا يزيغ بصرها ولا يطغى.

أو امرأة متصونة جِدُّ وفيَّة لزوجها الراحل، محبة لولدها القاصر، لا تفكر في تجديد صَبوة، ولا في خَفَقانِ قلب، أو وَجِيبِ فؤاد، هي امرأة طُموحها أن توفَّقَ في رسالتها أمّاً مع أبنائها، كما كانت موفقةً في رسالتها زوجةً مع زوجها.

كان "كمال" ينحني أمام هاتين المرأتين هيبة وإجلالاً، فابتسامته لا تعنيهما لأنهما لا يريانه، وشياكته لا تجذبانهما لأنهما لا يُصعِّدان النظر فيه أو يخفضانه.

وعَرْض خدماته من التنازل عن دوره، أو إعطاء ورقة بِدَوْرٍ مُبكر، أو "توصيلة" في طريقه، كل هذه الخدمات مصيرها الفشل والخجل، وربما دفع لها ثمناً أكبر من هذا إن هو تجاسر بعرض شيءٍ يتجاوزها.

لكن من عَجَبٍ أن نهاية "كمال" لم تكن على يد واحدةٍ من هاتين المرأتين، بل كانت نهايته على يد امرأةٍ أخرى، كانت سافرة إلا أنها عفيفة، جريئة غير أنها شريفة.

وأخيراً كانت تلك المرأة جميلة من نوع الجمال الحزين الرزين الآسر الذي يعيش مع الماضي بذكرياته العذبة، ويملُّ من حاضرٍ جعلها تفقد من تزوَّجته وعَشِقَته، ذلك الضابط شهيد الواجب الوطني الذي ارتقى أثناء مطاردته وملاحقته لعتاة من مهربي المخدرات، وهي الآن لا تأمل في شيء إلا أن تلحق بزوجها البطل الراحل!

وفي أحد البنوك..

كمال: صباح الخير.. مدامَ سَحَر.

سَحَر: من أنت.. ما الأمر والخبر؟

كمال: مشفقٌ عليك من زحامٍ اليومَ وضَجَر.. هذه ورقة حجزٍ قبل دورك بنحو مائة رقم.

سَحَر: تعرف رقم دوري وما معي من حجزٍ وورق؛ هذا اقتفاء متعمد بالترصد والأثر؟!

كمال: حين يلوح للناس القمر يندم من لم يُعره كبير اهتمامٍ وكثير نظر وعميق بصر.

سَحَر: تبدو شاعراً أو ناثراً.. أو ربما كنتَ من هواة الغزل والعَبَث أو المجون والدَّجَل.

كمال: معذور من يطالع الوجه الحَسَن إن هو أصابه شيطانُ بمسٍّ وسِحْرٍ أو شِعْرٍ وزَجَل.

سَحَر: ثم ماذا أيها الأديب الشاعر، بعد حوارٍ وإعجابٍ ونظر ونظمِ قصائدَ من ياقوتٍ ودُرَر؟

كمال: لقاء الأحبة وتبادل قلبينِ تجاربَ الحُبِّ وكؤوس العشقِ ومُكابدة الهُيامِ والسَّهَر.

سَحَر: أعني وماذا بعد لواعجِ عشقٍ وإدمانِ وصلٍ ونقاشٍ وإشباعِ فكرٍ ونظر؟

كمال: ليس إلا الزواج العَفّ الطاهر دون غواية أو مجاوزةِ ما الله شَرَعَ وأَمَر.

وفي زيارة من الضابط "مدحت" لأخته المحامية "سَحَر.."

سَحَر: أهلاً بأخي الحبيب دِرع البلاد.. أسدُ مِصْرَ والوطن.

مدحت: كيف حالك أختي.. وما حال ولدك وقضايا العمل؟

سَحَر: الحمد لله، هو المعين على تربيةٍ وعَمَلٍ.. ما آخر ما لديكَ من خبر؟

مدحت: كُلِّفْتُ بمَلَفِّ نصَّاب البنوك وقنَّاص القلوبِ والمُهَج.

سَحَر: إذن هذه يدي فوق يدك بالقانون والتدبير والحَذَر.

مدحت: أتمزحين.. أم أنك التقيت النصَّاب لقاء عينٍ ونظر؟

سَحَر: كما تقول يا كابتن.. سأُقرضه من المال شَرَكاً مُرقَّماً.

مدحت: لكن ليس قبل بلاغٍ مُسْبَقٍ بفقدِ مالٍ وعلامةٍ وأثر.

سَحَر: نعم.. بل مع المال قد أضع خاتمي وتلك السلسلة.

مدحت: بعد انصرافه عنكِ سيلقى نكالَ أسْرٍ مِني والعَنَت.

في المحكمة..

القاضي: حكمت المحكمةُ حضورياً على المتهم "كمال الدين سيد بهجت" بالحبس مدة عشر سنوات لجرائم النصب التي ارتكب.

كمال: يا ويلتى صرتُ حبيسَ الغَرَام.. صرِيعَ الهُيام.. ضحيةَ مكْرِ بُوليسٍ وسَحَر.. تبتُ عن نَصْبٍ ودَجَل وغَزْو قلوبٍ وإثَارَة المُهَج.

٣٧- الحصاد المر

طالت أيام البطالة بـ"هشام"، ذلك الكهل الأربعيني الذي كان يعمل بتوزيع أنابيب الغاز بحي "أبوقتادة"، قبل أن يغزو تركيب الغاز الطبيعي هذه المنطقة العشوائية بمحافظة الجيزة.

لكن "هشام" الآن لم يعد كسابق عهده عَزَباً حيث زادت مسؤولياته، وتضخمت تبعاته، فقد صار زوجاً وأباً، في عنقه أسرة وزوجة وولد.

فترى ماذا سيصنع "هشام" ليستطيع العيش مع حياة لاهثة تتقافز من غلاءٍ إلى غلاء؟

لم يطُل تفكير "هشام" كثيراً، لاسيما تحت إلحاح الحاجة والفقر، وضغط الفاقة والعَوَز، فحين خرج هائماً على وجهه إلى غير وُجهة أو مقصدٍ أو هدف، تلقفه المعلم "خلف"، ذلكم الرجل الستيني، الذي كان يبيع الخبز ظاهراً، ليبيع من باطنه المخدرات وأسباب المُتَع.

أشار "خلف" إلى "هشام" أن انتظر لحظة يا رجل، ثم همس في أذنيه:

خلف: إلى أين يا "هشامُ"؟.. مهنة الأنابيب كالسقَّاء ونافخ الكير والطرابيش ولَّى زمانها وانقضت.

هشام: نعم.. لقد صرتُ عاطلاً، ولا أدري ما العمل؟.. تطاردني نفقاتٌ وفواتيرُ وإيجارُ السكَن.

خلف: ولمَ لا تعمل معي؟.. أحتاج رجلاً في شبابك وقوتك بعد ما وخطني شَيْبٌ وغمرني الوهن.

هشام: لا يحتاج بيع الخبز وتسويقه كل هذا الاحتشاد والنَّصب.. أم تريد شيئاً آخرَ يا رجل؟!

خلف: نشاطُنا يحتاج إلى تجديدِ وجُوهٍ ومَلَكَاتٍ وقُدَر.. وأنا معروفٌ الآن هُنا محلُّ متابعةٍ ونَظَر.

هشام: ما المطلوب مني.. ماذا تعني.. وما مقابل مجازفةٍ بالمهام وتحمُّل الدواهي وكبير الخطر؟

خلف: حدِّد المبلغ الذي تريد دون جدل مني أو معاودة نظر، واجْهَزْ من ليلتك لأداء مهمةٍ وانتظر.

هشام: لي شرطٌ واحد يا "خلف".. سأرحل إلى مكانٍ بعيدٍ بحثاً عن ساحةِ عملٍ ناءٍ لترويجِ الطلب.

خلف: لكن اعلم أن العمل بين جامعاتٍ ومدارسَ ومراكزَ تدريسٍ ومقاهٍ وورشِ عَمَالةٍ ومحطاتِ سَفَر.

هشام: تمام يا "خلف".. عُلِم ووَجَب.. أنا الآن جاهز من فوري لأتسلَّم مهامي وموادّ الانبساطِ والسَّهَر.

ظن "هشام" أنه بتجاوزه محافظة الجيزة إلى القاهرة حيناً، والقليوبية أحياناً، أنه قد نجا من المُساءلةِ والمَسَاءَةِ والخطر، ولم يدرِ "هشام" أن رؤوس الشبكة قد كلَّفُوا "مرزوق" بنفث سُمومه في مدارسَ وجامعاتِ محافظة الجيزة ومنطقة الهَرَم.

وفي حوار بين المُنتدب "مرزوق" والمُدرب "خلف.."

خلف: مرحباً بـ"مرزوق" رجل المهام الكبرى والخطر.

مرزوق: أهلاً بـ"خلف" مُدرب الفريق الهُمام والبطل.

خلف: قرُبت امتحانات نصف العام فكثِّف هَيَّا العمل.

مرزوق: لا تقلق الكل لحْظ عنايتي ورعايتي والنظر.

فوجئ "هشام" أثناء التوزيع والتنسيق، وانهماكه مع مروجي المخدرات وبائعي النشوة والهوى بهاتفه يهتز ويضطرب.

وإذا بزوجته تستغيث به: أن أدرِك ولدَنا في العناية الفائقة بمركز السموم والمخدرات، إنه بين حياةٍ وموت.. بين رحيلٍ وفَوْت.. في أشد الخطر!

وفي مركز السموم..

هشام: ماذا جرى يا زوجتي.. ما القصة ما الخبر؟

زوجته: ابنُنا اعتراه منذ أيامٍ شُرودٌ وضَعْفٌ وأَرَق.

هشام: ولماذا لم تخبريني يا امرأة بالنبأ؟

زوجته: أنت صرتَ كثير التغيُّب دائم السَّفر.

الطبيب يخرج بمن العناية المركزة مطأطئَ الرأسِ حزينَ الطَّرْفِ يجرُّ الخُطى..

هشام: خير يا دكتور.. كيف الحال يا تُرى؟

الطبيب: أنت والده؟.. اصبر واحتسب فقد فات الأوان وحلَّ به القَدَر.

هشام: اصنع ما بوسعك يا دكتور معي مالٌ كثير.. فابني بعدُ لم يمُت.

الطبيب: ما عساه أن يُجدي المالُ مع استيفاء العُمُر وانقضاءِ الأجَل؟!

٣٨- سائق القطار

على حين كان يُحب أقرانُ الطفل "ناجي" سماع الأغاني، ومشاهدة برامج الكارتون، وأفلام الكوميديا والاقتتال، كان "ناجي" يعشق سماع بُوق وصوت عجلات القطار.

منذ نعومة أظفار "ناجي" وهو يَحْلُم بأن يكون قائدَ قطارٍ، كم كان يحب السَّفَر مع والديه كثيراً؛ لأنه سيرى القطار ويركبه، وربما حانت له فرصة ليرى سائق القطار فيتعرف سماته، ويعاين ملامحه، ويشاهد زيه داخل قُمْرة وكابينة القطار.

"ناجي "قد أدرك، لكثرة ركوبه القطار وتردده على المحطة عِشْقاً وشَغَفاً، متى تكون زَمَّارة القطار مُؤذِنة بتهدئةٍ ووقوف، ومتى تكون مُشعِرَةً باستعدادٍ لانطلاقٍ وإقلاع، وأخيراً متى تكون هذه الصَّفَارة نذيراً لقطاراتٍ أخرى بدنو الاقتراب، أو بضرورة تحويل القطار والتخزين لقطارٍ آخرَ فائق السرعة.

لم يُدرك "ناجي" في ذلك الوقت أن هناك بوقاً من نوع آخر قلَّما يُصدِره سائق القطار، وذلك قُبيل وقوع حادثٍ من صدام حتمي لا مَعْدًى عنه ولا مَنَاصَ منه لحيوانٍ، أو آلة، أو عربة، أو ربما لإنسانٍ قد أخذته سَكْرَةٌ وغَمْرَة، أو تملَّكه هَمٌّ وحَسرة، أو استبد به يأسٌ وعميق فِكْرة.

استكمل "ناجي" دراسته التي تؤهله لسلوك طريق قيادة القطار، وتدرَّب عدة سنواتٍ في ورش السكة الحديد حيث كان طالباً لسنواتٍ طويلة، وعمل فنياً لأعوامٍ أخرى مديدة.

أصبح "ناجي" معاوناً لسائق قطار مدة سنتين أو ثلاث سنوات، بعدها ترقَّى إلى أن صار قائداً مستقلاً للقطار، وقد فُوجئ "ناجي" بمرور العمر حين وجد نفسه قد جاوز الأربعين، بعد أن أصبح زوجاً وأباً.. ربّ أسرةٍ وذا وَلَد.

"ناجي" بعد عودته من إحدى رحلاته يدخُل مبتهجاً مُحدّثاً زوجته سَمَر..

ناجي: السلام عليكم سيدة الدار.

سمر: مرحباً بقائد البيت والقطار.

ناجي: كيف حالكِ والأسرة والولد؟

سمر: بخيرٍ.. أما لأسفارك هذه من راحةٍ أو قرب أمد؟

ناجي: ذاك حين أبلغ الستينَ أو ينتهي العُمر والأَجَل.

سمر: بارك الله بعمركَ ومتَّعكَ بحُسن الصِّحة والعَمَل.

ناجي: هيَّا افتحي الحقائب ففيها حاجيات لكم وطَلَب.

سمر: لا طلبَ لنا أو أَرَب غير شكر الإله على كل ما وَهَب.

ناجي: سفري كما تعلمين غداً إن شاء الله في المساء.

سمر: إذن فحَمَّام وغَداءٌ.. ثم نومٌ كافٍ وخفيفُ العَشَاء.

نام "ناجي" فإذا به يرى نفسه بمحطة مصر يحاور صديقه "كامل" قائد قطار دمياط..

ناجي: أوشكنا على الإقلاع يا "كامل" سَفْرتي لأسيوط، ورِحْلتك إلى دمياط.

كامل: "ناجي"، ألا تجرب معي هذا النَّوْع.. كم هو مُبهج مُنعش طاردٌ للنوْم؟

ناجي: ما هذا؟! لا تفعل. لا تشرب هذا أو غيرَه لا بسَفَرٍ ولا أنتَ في حَضَر.

كامل: جلبتُه من أجل يقظةٍ وانتباهٍ دفعاً لسِنَةٍ من النُّعاس أو لملالٍ وكَدَر.

ناجي: لِمَ لَمْ تُرِحْ نفسكَ أمس والبدن.. وتترك ثقيل الطعام أثناء العمل؟

كامل: كنتُ جوعانَ فأكلتُ جَمّاً بنهم وأخشى الآن داهيةَ النَّوْم والقَدَر.

ناجي: عَمَلُنا يا صاحبي إنما نحتمل فيه مئاتِ الأرْوَاحِ والأنفسِ والمُهَج.

كامل: لذا سأتناول هذا من أجل تأمين هؤلاء المسافرين من أدنى خَطَر.

ناجي: فراقٌ بيني وبينك يا "كامل" إن أنت لم تُلقِ هذه اللفائفَ والوَرَق.

كامل: لا تُكَبِّر يا "ناجي" صغيرَ أمرٍ بلا داعٍ وتقلق عليَّ ورحلتي والسَّفَر.

ناجي: أليس من الدِّين وأصولهِ حِفْظُ عَقْلٍ ومَالٍ وأعراضٍ والنَّسْل وَالوَلَد؟

كامل: يا شيخُ "ناجي" حانَ الآن السَّفَر.. دُونَكَ لفائفي والسجائر والعُلَب.

ناجي: أحسنتَ يا "كامل" نِعْمَ الصّنيع والعمل.. إلى لقاءٍ آخر أيها البَّطَل.

شَعَرَ "كامل" بعد أن انطلق بالقطار بدُوار وصُداع، ووَهن ووَخَم، فإذا به يُخرِج ما استطاع أن يَدسُّه بمنأى عن عيني "ناجي"، وشَرَع في تَعَاطٍ طويل وعَبٍّ ونَهَم.

لم تمرَّ ساعةٌ حتى احمرَّت عينا "كامل" وازرقَّ منه البدن، مع اختناقٍ نَفَسٍ ونَصَب وتعرُّق ورهَق، تحسس "كامل" هاتفه ليُخبر برج المراقبة أو يستغيث بنداءٍ وطَلَب.

لكن الوقت قد فات وانقضى فلم يستطع "كامل" تحويل قطاره لـ "تربينو إسباني" أقبل يزفُّ مسرعاً، مصدراً آخر بُوق وأعلاه للحرص والحذر، عندها فَزِع "ناجي" من نومه مُستعيذاً بالله مُستغفراً، وقد هُرِع إلى هاتفهِ لِيطمئن على "كامل "صديقه وصاحبه!

٣٩- بائع العرقسوس

في ضاحية "أبو قتادة" كان "حنفي" يرفع عَقِيرَته وهو يجرّ عربته المعدنية ذات الصفيح الأبيض الأملس صيفاً: "خمير يا عرقسوس"، "سوبيا وخروب"، وفي الشتاء كان يدفع العربة ذاتها منادياً: "حلبسة.. حمص الشام."

كان "حنفي" أبيض البَشَرَة مُشرباً بحُمرة، فارع الطول، ذا صحة موفورة، ونفْسٍ قانعة، وقلبٍ راضٍ، يردّ تحية المارّين في ابتسامة وإقبال سواء اشتروا منه أم لم يكونوا من المشترين، وكان يتردد دوماً بين ناصيتي الشارع مارّاً بـ"برسومة" بائعة الطيور، و"مكتبة مهدي"، وغيرهما من المحالّ.

على الناحية المواجهة من الناصية كان "غريب" يقف صامتاً متوجساً، مراوحاً بين ذَهَابِ ذئب، وإيابِ ثعلب؛ ليبيع المخدرات خُلْسَة بين حشيشٍ وأفيون، وحُبوبٍ وهيروين.

كان "حنفي" يرى "غريب" ويدعو له كل يوم بأن يتوب الله عليه، بل كان كثيراً ما يجابه "غريب" بأنه لا يفتأ يمقت وقفته وتجارته حتى يُقلع عنهما ويُحيلهما إلى تجارة حلال.

وذات ليلةٍ دار حديث بين "حنفي" و"غريب" يراود فيه الأخيرُ الأولَ كي يعمل معه في ترويج المخدرات وبيعها..

غريب: مساء الخير يا "زُمُل."

حنفي: مساء النور، ما كنتُ يوماً لكَ زميلَ عمل.

غريب: نحن أبناء منطقة واحدة وشارعٍ وناصية.

حنفي: كأنك تريد أن تقول شيئاً؟

غريب: ما رأيك في أن يزيد دخلُك من دُون تَعَبٍ ولا كبير عناءِ عَمَل؟

حنفي: يزيد رزقي دون جهْدٍ ولا نَصَبٍ.. كيف يكون ذلك يا رجل؟!

غريب: سأُودع في عربتك أمانة عندما يلوح أو تبدو لي أماراتُ خَطَر.

حنفي: ثم ماذا؟

غريب: أستعيدها عندما ينجلي الخوفُ وتتبددُ التُّهَم.

حنفي: وكم رصدتَ لهذه المهمّة وذاك العمل الخَطَر؟

غريب: ثلاثة أضعاف ما تجنيه مع البأساء والشَّظَف.

شَعَر "حنفي" بوخزة في قلبه وانقباضٍ في نفسه، فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم دعا "غريب" أن يُقلع هو عن عمله الحرام، ووعده بأنه سيساعده في البحث عن عمل بديل حلال.

وفي نهاية المساجلة والحوار، طلب "حنفي" إلى "غريب" أن يفكّر جِدياً في الأمر، ثم يوافيه غداً بالرأي والخبر..

وفي الصباح.. شرع "حنفي" يَعْمُر عَرَبَتَه، ويجهِّز بضاعته، وأدواتِه وثلجه، ثم بدأ يجرها ونَهَض يمارس طقوسه وعمله، وعلى إحدى ناصيتي الشارع توجَّه إليه "غريب"، لكن "حنفي" استبقه قائلاً:

حنفي: ماذا قلتَ وعلامَ عزمتَ.. فكم دعوتُ بخيرٍ لك ورجوت؟!

غريب: وهل يصلح مثلي لعمل شيء؟

حنفي: ستعمل معي إن قرّرتَ وتحرّرت.

غريب: هل سأشاركك عربة العرقسوس؟!

حنفي: للأسف العربة لا تنهض بفتح بيتين!

غريب: ولو تركتُ عملي ففيمَ سأعمل إذن؟

حنفي: اعْقِد النيّة وعلى الله القَصْد والرَّشَد.

مضى "غريب" إلى بيته في نهاية ليلته يفكّر للمرة الأولى في أمر توبته بعد تركه العمل، ثم نام فإذا به يرى صخرة صماء قوية ملساء وهاتفاً يهمس:

هيا "غريبُ".. اقتحم العَقَبة.. اكسر الصَّخرة.. افْلق الحَجَر، فلما كسرها – بعد لأيٍ – وجد داخلها دودة ترعى بجوار نقطة ماء وشيء من مادة خضراء!

أفاق "غريب" شديدَ التأثر برؤياه، وفي الصباح هرع إلى "حنفي" وقصها عليه فأولها له بأنها رسالة من السماء ليتوب توبة نصوحاً، ولا يحمل هم الرزق، وحينما قال "غريب" لـ "حنفي" لكن ماذا سأعمل الآن؟

قال له "حنفي": بادر فوراً وتخلَّص مما لديك من تبعات وأدران المخدرات.. واجهز لتبيع تِيناً وذُرَة.. وليموناً وخُضْرة.

ومنذ ذلك الحين صارت الناصيتين زاخرتين ببيع وشراء العرقسوس والليمون، والذُّرَة والتين، وكان كلما صَدَعَ "حنفي" بـ "خمير يا عرقسوس"، صَدَحَ "غريب" بـ"أبوحلاوة يا تين!"

وكان يحلو لـ "غريب" أن يستمع إلى راديو "حنفي" المعلّق بالعربة، وكان أكثر ما يستهويه رائعة طاهر أبو فاشا "الرضا والنور" التي بثتها "أم كلثوم" روحاً عمَّقت فَرَادتها وخلَّدت جمالها وجلالها:

أوقدوا الشموس *** انقروا الدفوف *** موكب العروس

في السما يطوف*** والمنى قطوف

الرضا والنور *** والصبايا الحور*** والهوى يدور

آن "لغريب" أن يرى حماه ***يومه القريب شاطئ الحياه

يا حبيب الروح * تائه مجروح *** كله جروح**

لائذ بالباب * شوقه دعاه *** والرضا رحاب....**

٤٠- غزل الدجاج

كانت جماعةٌ مِن الدَّجَاج تعيش في حظيرة واسعة، الأب الديك "فرغل"، والأم الدَّجَاجة "كوثر"، والأبناء أجيال مختلفة الأعمار من الفِرَاخ اليافعين الصِّغَار، والكتاكيت السُّذَّج الأغْرَار.

لاحظ الصِّغَار من الفِرَاخ والكتاكيت أن نوباتٍ من الحيرة تعرو أمهم الدَّجَاجَة، فلا يُغريها حينئذٍ التقاطُ حَبٍّ وإن حلا، ولا شربُ ماءٍ وإن صفا، ولا حتى غَزَلُ أبيهم وإن أبدع فيه وأطنب، وأشعر فيه وأسهب!

كان الصِّغَار يتساءلون: ما بال أُمِّنا لا تهتم في لحظاتها الحائرة بأحدٍ صغُر أو كَبِر، ولا يروق لها طعامٌ ولا مأكل، ولا ماءٌ ولا مشرب، حتى تنتهي هذه الحالة الحائرة بوضع بيضة في مكان آمنٍ مُحددٍ، تعقبه الدَّجَاجَة أُمُّنا بصياحٍ معروف، وصوتٍ مألوف، فيه فرحة النجاح بإنجاز المهمّة، وتمام الإنتاج، وختام العمل..

الكتاكيت: انظروا هل ترون أُمَّنا الحائرة؟

الفراخ: يبدو أنها في مَخَاضٍ تعاني متألمة!

الكتاكيت: لِمَ نراها هكذا هائمة متوترة؟

الفراخ: أطعمتنا وسقتنا وبجناحيها دفَّأتنا.. فماذا تريدون بعُد منها؟

الكتاكيت: نحب أن ترعانا وأن تفضَّ شِجارنا.. وتَقَسِم الحَبَّ بيننا.

الفراخ: هذه من مهامّنا نحو صغارنا ويدُ أبينا فوقَنا ومِن ورائنا تَمُدُّنا.

الكتاكيت: كنا نود من أُمِّنا أن تَلُّفَنا.. ومن ابن عِرْسٍ وقِطٍّ تحوطنا.

الفراخ: تلك لعمري مهمة الشُّبَّان.. وصميم عمل أبينا الديك الهُمام.

الكتاكيت: لكنَّا نُحب "كوثر" أُمَّنا حباً جماً بالغاً!

الفراخ: ومَن مِنا لا يُجِلُّها ولا ينحني بالبر أمامها؟

عادت "كوثر" من مهمّة وضع البيضة مسرعة، تركض نحو الصِّغَار في لهفة حانية، ثم بعد أن اطمأنت عليهم، بادلت "فرغل" نظراتِ ودٍّ ورحمةٍ وحُبٍّ باسمة..

فرغل: أين كنتِ يا "كوثر".. ألم أقل قبلُ عني لا تتأخري؟

كوثر: كنتُ في مهمّة مُلحّة عاجلة أجيدها ولا تستطيعها!

فرغل: أتسخرينَ مني يا "كوثر" أم هو صياحٌ ومِراءٌ وهَرَب؟

كوثر: لا جدالَ ولا مِزاحَ ولا غضب.. بيضة فاجأتني يا رَجُل!

فرغل: هكذا إذن زوجتي وحبيبتي.. يكون القّصُّ وتمامُ الخَبَر.

كوثر: اقترب موعدُ احتضاني البيض ودنا نأي طويلٌ مني وسَهَر.

فرغل: أمري لله خالقي نِعْمَ الإلهُ الذي خَلَقَ فَسَوَّى ثُمَّ قدَّر ووَهَب.

كوثر: حياة الدجاج كِفاحٌ ونَصَب.. بيضٌ ووضعٌ ورقودٌ وكَبَد.

فرغل: وفصيلة الديوك ألا تُعَاني يا امرأة؟

كوثر: هم عيونٌ حارسة دروعٌ وحماةٌ مِن كلِّ ضيقٍ وكَدَر.

فرغل: الديوك قادةٌ وجنودٌ وحَرَس.. أمنٌ وأمانٌ فقط؟!

كوثر: هم نور العيون إذ بهم تسطع الشمس ويتجلى القَمَر.

فرغل: هذا أيضاً فقط.. فمن خَصَّبَ البيضَ بماءٍ مُنْهَمِر؟!

كوثر: يا "فرغلُ" نحن زوجان لسنا إلا محضُ وِعَاءٍ وسَبَب.

شاء اللهُ أن نكونَ فكُنَّا.. والتقى الماءُ على أمرٍ قد قُدِر!

نبذة عن المؤلف

أحمد محمد عيسى عبد الرحمن

الدولة :

مصر _ القاهرة

المؤهلات :

* الدبلوم الخاصة في التربية من معهد) :الدراسات والبحوث التربوية (. جامعة القاهرة.
* الدبلوم العامة في التربية من معهد :)الدراسات والبحوث التربوية (. جامعة القاهرة.

*تمهيدي ماجستير في النقد الأدبي والأدب المقارن من) :كلية دار العلوم (. جامعة القاهرة.

* تمهيدي ماجستير في الشريعة الإسلامية من) :كلية دار العلوم (. جامعة القاهرة.
* دورة في تحقيق التراث من) :مركز الدراسات الإسلامية (. جامعة القاهرة.
* الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية من) :كلية دار العلوم (. جامعة القاهرة.

الخبرات:

* مدير وحدة التدقيق اللغوي بموقع" مباشر

* العمل مدققاً لغويّاً بصحيفة" تواصل "الإلكترونية السعودية
* العمل محرراً ومدققاً لغويّاً بصحيفة" الوئام "الإلكترونية السعودية
* العمل مدققاً لغويّاً بموقع" الدرر الشامية "
* العمل مدققاً لغويّاً بصحيفة" سبق "الإلكترونية السعودية
* العمل باحثاً لغويّاً وشرعيّاً، ومحرراً) أول(، بموقعي) :نداء الإيمان، والخير الشامل.(

*العمل مدققاً لغويّاً بموقع" العربية "الإلكتروني، من خلال قناة الـ"MBC".

* مدير مجموعة بموقع خدمات مباشر.
* العمل محرراً ثم محرراً) أول(، ثم مراجعاً ثم مراجعاً) أول (بموقع خدمات مباشر.
* المشاركة في تدشين وتطوير موقع خدمات مباشر.
* العمل في المراجعة اللغوية من خلال وسطاء لـ :دار" المقطم"، و"كلمات عربية"، و."RDI"
* العمل باحثاً لغويّاً وشرعيّاً بموقع) :نداء الإيمان (
* العمل باحثاً لغويّاً وشرعيّاً بشركة صخر
* العمل في الفريق الفني لموسوعة) :مقاتل من الصحراء(

من خلال شركة صخر.

أعمال سابقة:

– قصة وخلق _قصص _ pdf _ دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني _ بلادي الجديدة_ مقالات_ دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني

الفهرست

١- ضمير زوج ٣
٢- هارب إلى السرايا ٦
٣- نور السلم ٩
٤- تذكرة قطار ١١
٥- حين يتواضع الخارقون ١٣
٦- آثام الظنون ١٦
٧- حوار مع طبيب ٢٠
٨- حمامة المسجد ٢٥
٩- طفلة تائهة ٢٨
١٠- عمارة لا تكذب ٣٣
١٢- تصابي الخريف ٤٣
١٣- خط أحمر ٤٦
١٤- بوفيه مفتوح ٥٠
١٥- حوار في أتوبيس ٥٤
١٦- قطار الأفكار ٥٨
١٧- حكاية عم سعيد ٦١

١٩- موبايل الشيخ مسعود ٦٧
٢٠- يوسف والباشا ٧٢
٢١- جبر الخواطر ٧٩
٢٢- النفعية وقهر الرجال ٨٢
٢٣- مأساة شحاذ ٨٦
٢٤- شيطانٌ في الغربة ٩١
٢٥- فن الاحتيال ٩٩
٢٦- حلم في الميكروباص ١٠٣
٢٧- غرام في المترو ١٠٧
٢٩- أذان المنشاوي ١١٦
٣٠- جوهر الدين ١١٨
٣١- زوج اثنتين ١٢٢
٣٢- يا دكتور! ١٢٨
٣٣- غموض في مصر القديمة ١٣٢
٣٤- بائع الأسماك ١٤٣
٣٥- ماسح الأحذية ١٤٦
٣٦- قناص الأرامل ١٥٠
٣٧- الحصاد المر ١٥٥
٣٨- سائق القطار ١٥٨

٣٩- بائع العرقسوس..... ١٦١
٤٠- غزل الدجاج..... ١٦٥
نبذة عن المؤلف..... ١٦٧
الفهرست..... ١٦٩